مختارات من نثر

كامل الشناوى

obeikan.com

obeikan.com

تأملات شاعر

من ساعات كامل الشناوى:

طريق حياتى

● ما أشبه طريق حياتى ببيتى، نصفه مفروش والنصف الآخر خال من الآثاث.. أتلفت ورائى فأجد الأيام تغطى طريقى، وأنظر أمامى فأرى الطريق عاريا إلا من يوم أراه، ويوم لا أكاد أراه!

يا شقوتى من طريقى.. يثير خوفى كلما تقدمت خطوة، ولا أستطيع أن أرجع إلى الوراء فهذا محال..

هل أقف مكانى حتى لا أصل إلى العراء الذى ينتشر كالظلال القاتمة؟ إن الوقوف والتجمد، كلاهما موت، وأنا لا أخاف الموت، ولكنى لا أسعى إليه!

وإذا ما أرسلت بصرى أمامى أحسست الوحشة والكآبة، وشعرت بأنى فريسة لخيانات تنبع من أعماقى. وليس هذا الشعور وهما. فقد خاننى عمرى... سرق شبابى واختلس قواى. وخاننى ذكائى فظننت الأبيض أسود، والأسود أبيض! وخانتنى ذاكرتى فنسيت من أنا؟ توهمت أنى ما أزال قادراً على أن أجدد صباى بانفعال عاطفى جديد... وفى لحظة تبين لى أنى لا أجدد صباى، ولكنى أجدد شيخوختى! فأفقت من غفلتى، وأخذت حذرى من خيانات العمر، والذكاء، والذاكرة... ولم يسعنى إلا أن أرضخ للحقيقة، وأهرب من انفعال الجديد!

* * *

أنا والشتاء

● قالت لى: أنت فى قمة الحب هذه الأيام.. البرد لاذع، والجو يهدر ويتلاطم كموج من صقيع... وأنت تحت البرد، والموج، والصقيع! ووضعت كلتا يدى على ركتبى، وأخذت أنحنى على نفسى، وأنكمش وأزعق، حتى لا تسمع صياح فرائصى وهى ترتعد!

وقلت: إنى أحب الشتاء فعلاً..

ـ إن ما يريحك يعذبنى... فأنا أكره هذ الشتاء الذى تحبه.

قلت: إن الحب كالقدر. أحياناً يمنحنى الراحة، وأحياناً يتعقبنى بالعذاب... ولا حيلة لى فى أن أهرب منه إذا عذبنى. هل تستطيعين أن تهربى من القدر!

- و لم لا؟

قلت: أنا شخصاً لا أستطيع أن أهرب من قدرى... من حبى. وإذا فقدت الحب حقيقة.. وجدته ذكرى!

ـ أنا أحدثك عن الشتاء، وأنت تحدثنى عن الحب!

قلت: إن الشتاء لى.. حب نابض حار، يلسع مشاعرى، ويثير نشوتى، فتبدو لى الحياة كلها ضحكة عالية مرحة، فكرة عميقة واضحة، قطعة موسيقية، قصيدة شعر، شباباً متجدداً، فتاة حلوة جذابة فى العشرين، وأنا مثلها فى... العشرين!

إنى أحب شمس الشتاء التى تختبئ فى الغيوم، فإذا ظهرت لحظات..بادرت السماء فردتها إلى المخبأ بصيحات الرعد، ووميض البرق،

ودموع المطر...

أحب نهار الشتاء العريان إلا من الضباب... أحب ليله يتدثر بالمعاطف، والأردية، ويقتحم السهرات الهادئة والصاخبة... يأكل بنهم، ويشرب بنهم. ويمرغ وجهه، ويديه وساقيه.. على لهب المدافئ!

ـ أما زال هذا شعورك بالشتاء؟

قلت: كان هذا هو شعورى به طوال عمرى!!

ـ والآن؟

قلت: يخيل لى أنى لم أعد جديراً بحب الشتاء!

ـ لقد أصبحت إذن لا تقوى على البرد مثلنا؟

قلت: أو على الأصح، قالت فرائصى المرتعدة... نعم!

ـ وكيف راح حب الشتاء الذى زعمت أنه قدر؟! هل عرفت كيف تهرب منه؟!

قلت: لم أهرب منه... وإنما هو الذى هرب منى... هرب من سنى!!

* * *

مأساة إنسان مثالى

● رقـــيق، ذكى، عـــالم، يؤمن بالله والقـــيم، والإنسانية..، افترقنا سنوات.. وزارنى بغتة، ولم أكد أراه حتى ضممته إلى صدرى فى شوق وحنان، وقابلنى بفتور، صافحنى بيد نائمة كضمير ظالم.. وحيانى بابتسامة خافتة كصوت مبحوح!.

وبعد ما أمضينا معاً ساعات خيل لى أنه شخص آخر!! لقد أصبحت رقته ضراوة، وصار ذكاؤه خبثاً، وتخلت عنه ثقافته، واستحال إيمانه بالله، والقيم، والإنسانية.. إلى سخط جارف على الحياة! وعرفت مأساته. لأنه يعنى حالة نفسية وبيلة، لقد أخبره الأطباء أنه لا ينتمى إلى أحد الجنسين... وأنه لابد من إجراء جراحة تحوله من رجل إلى امرأة، أو تحوله من امرأة إلى رجل... فهو يحقد على الرجال لأنه ليس منهم، ويحقد على النساء لأنه ليس منهن!

وقد جعلته مأساته ينقلب فى سلوكه من إنسان مثالى يعيش فى مجتمع.. إلى وحش مفترس يعيش فى غابة!

ولم أحاول أن ألومه، أو ألعنه، أو أنقم عليه، فإن مأساته الرهيبة تحميه من اللوم، واللعنة، والنقمة.

* * *

التليفزيون فى بيتى !

● دخل بيتى زائراً، يتكلم دقائق، ويسكت ساعات، يبدى بعض الإشارات فى أوقات متفرقة، ويمتنع بعد ذلك عن أية إشارة !.

ولكن من يشاركوننى البيت حولوه من زائر إلى صاحب بيت.. فهم يجلسون معه أكثر مما يجلسون معى ! ويلتفون حوله، يستمعون إليه، ويتأملونه، فى لذة وشغف، فإذا امتنع عن الكلام أو الحركة... قلبوه بين أيديهم، ودلكوا له ظهره، وتحسسوا أصابعه.. أو استدعوا أخصائياً، ولا يزالون به حتى يسترد أنفاسه، ثم يعودون إلى الإصغاء إليه، والتأمل فيه !هذا هو جهاز التليفزيون الذى يظل مفتوحاً فى بيتى خلال فترات الإرسال، وما أكثرها، والويل لى ممن يسكنون معى، إذا أنا حاولت أن أغلقه ! ولا شك أن للتليفزيون إغراء لا يستطيع مقاومته من عندهم وقت يسمح لهم بأن يقعوا تحت سيطرة الإغراء. ومن سوء حظى أن كل من فى البيت ليس لهم وقت حتى يحتفظوا به، أو يضيعوه !

والراديو ما زال حتى الآن يغرى أمثالى بالإقبال عليه، ولكن الفرق بين الراديو والتليفزيون، هو أن الراديو سيدة محجبة تخاطبك بلباقة، ولا تراها... أما التليفزيون فإنه سيدة تحررت من الحجاب. وهى تتحدث إليك بلباقة ورشاقة، وإذا لم تقنعك لباقتها... أقنعتك رشاقتها !.

* * *

سطوة الجمال !

● إلى أين يقودنى الجمال؟ وهل الناس جميعاً مثلى.. يعذبهم إذا رأوه ويعذبهم إذا احتجب عنهم؟

كم أعانى من انفعالاتى به، إنها تثير فى نفسى القلق، والريبة والرعشة... ولكم ألهبتنى هذه الانفعالات وأضرمت النار فى دمى ونبضى، وما حاولت يوما أن أفر منها، فهى مثل الحياة تشقينا، ولكنا نحرص عليها، ونتشبث بها... نمارسها لنحيا، ونحيا لنمارسها!

إننى أحب الجمال ولو تحول إلى خنجر يسكن ضلوعى، يجول فيها، ويتلوى، ويقفز!..

أحبه فى فكرة، كلمة، لوحة، نظرة، إشارة شروق، ضباب، حقيقة، خيال، بحر هائج، نهر وديع، رياح عنيفة، نسيم ضعيف، نغمة تنساب من حنجرة، أو آلة موسيقية، أو كعب حذاء!.

ولا تدهش... فقد اهتز كيانى، وأنا أسمع صوت حذاء عال يمر بجانبى، ووجدتنى بغير إرادة، أتجه إليه بكلتا عينى... كان يضم قدمين صغيرتين، تمهدان لساقين تعرتا بجورب من الحرير... يعلوهما قوام يتثنى بخفة فى فستان يتحدى برد الشتاء... وقد برز من القوام صدر جذاب يعلو ويهبط فى خفوت كبقايا موجة.أو ضوء شمعة تعرضت لنسمة عابرة... وقد بدأ على الصدر عقد اللؤلؤ، وضج فيه نهدان متمردان !وأطل فوقه عنق حلو ممشوق يحسن التعبير عن لفتاته بسحر ولباقة... واستسلم العنق لوجه باهر القسمات، اكتسى بحمرة الورد وبياض المرمر.. العينان زرقاوان ترفرف عليهما أهداب سوداء.

والخدان ينبضان بالحرارة كقبلة الفراق ! والأنف دقيق ينسحب إلى الشفتين فى كبرياء.والفم ملئ... بالرقة !والأذنان الرقيقتان، انسدلت عليهما خصلات الشعر الناعم الأصفر لتغطى الأذنين وتحجب عنهما صيحات الإعجاب !

واختارت الفتاة إحدى الموائد، وجلست، وانتقلنا إليها بنظراتنا وأنفاسنا.

كان فوق المائدة مصباح التف بغلالة زرقاء، إنه لا يرسل أشعته فى صمت كهذا المصباح الجاثم فوق مائدتنا... إن أضواءه تصرخ، وتعربد... فالنور المنبعث منه يتمايل، ويترنح !!.

كانت وحدها.. هكذا رأيناها عندما مشت أمامنا، وعندما جلست بالقرب منا... وكنا سمعنا صوتها.هل تحدث نفسها؟ وكيف؟! ورمقنا مائدتها بأعيننا، فوجدنا معها شخصاً... ولم نعترف بوجوده، فحيث يكون الجمال... لا نستطيع أن نعترف بغير الجمال !

* * *

الحب والعذاب !

● سألنى : ألا تزال تحب ؟

قلت : ربما . . .

ـ ألا تعترف أنك لم تظفر من الحب إلا بالعذاب ؟ !

قلت : وما هو الحب ؟

ـ التقاء عاطفة بعاطفة .

قلت : إن هذا الالتقاء هو عود الثقاب الذى يشعل نار الحب . . فإذا اشتعلت النار التهمت الالتقاء ، والتهمت أيضاً عود الثقاب !

ـ قل لى أنت . . . ما هو الحب ؟

قلت : الحب أن تتعذب بمن تحب ، أو يعذبك من تحب !

ـ وإلى متى تتعذب وحدك ولا تفرض العذاب على سواك ؟ !

قلت : أنا فى العذاب أنانى . . . أستأثر به لنفسى ! .

ـ ما أسعدها !

قلت : بل ما أشقانى . . فقد يصحو ضميرها ذات يوم فتعانى عذابى . وتتركنى وحدى بلا عذاب !

* * *

نهر الزمن !

● وبعد دقائق يلتف عقربا الساعة وينقض أحدهما على الآخر، ويعلنان انتهاء عام، وابتداء عام...

انتظرى ياعقارب الثوانى، والدقائق والساعات... تريثى، قفى... فأنا لم أستعد بعد للرحيل معك.

كل الناس فى هذه اللحظات ينتقلون من سنة إلى سنة على جسر من القبلات... وليس لى جسر أعبر عليه!!

إنى أحس وأنا أقفز من شاطئ السنة القديمة إلى شاطئ السنة الجديدة، بلا قبلة... بلا ابتسامة.. إنى لا أتحرك، ولا أقفز، ولكنى أتهاوى، وأتدحرج، وأسقط فى نهر الزمن!

* * *

اللقـــاء

● التقينا... وكنت أحسب أننا لن نلتقى أبداً... ونسيت كل شئ إلا أنى أحبها، ونسيت هى كل شئ إلا أنها لا تحبنى!

وسألتنى: أين كنت ليلة أمس؟

قلت: كنت معك!

وانطلقت منها ضحكة عالية كاذبة... كعواطفها!!

وقالت: أنا لم أقابلك من ثلاثة أشهر!

قلت: وأنا قابلتك كثيراً خلال هذه الفترة... وقد كنت معك ليلة أمس بالذات... وصافحتك، لثمت يدك، ضممتك إلى صدرى!

ـ ماذا تقول؟!

قلت: أقول الصدق.

ـ ولكنى لم ألتق بك أمس قطعاً.

قلت: وهل التقيت بى اليوم؟

ـ طبعاً!!

قلت: أنت ما التقيت بى فى أى يوم... إن اللقاء ليس فى أن نجتمع فى مكان واحد... ولكن اللقاء هو أن ننفعل بشعور واحد! وشعورى الذى انفعلت به منذ سنوات لم يتخل عنى، ولم أتخل عنه فى أية لحظة!

ـ هه!

قلت : ألا تثقين بما أقول !

ـ أنا واثقة من أنك كنت تجلس أمس فى هذا المكان مع فتاة تحدق بعينيك فى وجهها .وتصغى إليها باهتمام !

قلت : أنا أفتح عينى بجسارة على ما لا يبهرنى ! !

ـ وما يبهرك... ألا تنظر إليه ؟ !

قلت : لا أجرؤ على أن أحدق فيه .

ـ وما الذى لا تجرؤ على التحديق فيه ؟

قلت : الجمال الخارق... والشمس الساطعة .

ـ ولماذا تغطى عينيك الآن بهذه النظارة الغامقة ؟

قلت : الشمس ساطعة !

ـ أين الشمس... ونحن فى منتصف الليل ؟ !

قلت : الشمس... فى حقيبتك !

ـ ليس فى حقيبتى إلا منديل وعلبة بودرة، ومفتاح، ومرآة ! !

قلت : انظرى فى المرآة !

* * *

قدرى الشقى

● ياقدرى الشقى...

ياحبى...

متى تيأس منى، فلا تطاردنى، ولا تغرينى بأن أطاردك ؟!

* * *

النوم والحب

● أصبح النوم كالحب...

أريده ولا أقوى عليه !

* * *

obeikan.com

الخديعة

● لم تخدعينى... أنا الذى خدعتك... أوهمتك أنى أصدق انفعالاتك، كلماتك، دموعك، ابتساماتك.. مع أنى كنت مؤمناً بأن كل ما فيك كاذب..إلا القوام الذى يذوب رقة ورشاقة، والوجه الجميل المرصع بملامح أشبه بفكرة خارقة، أو نجم ساطع!!

واليوم تجلت لى حقيقة أخجلت ذكائى... فأنا لم أخدعك وحدك ولكن خدعت نفسى!!

لقد نظرت إليك بعد ما انتهت فترة الحب والحماقة، فوجدتك جسداً بلا قوام، ووجهاً بلا ملامح!!

* * *

الانفعـــال

● سألنى: لماذا ترهق نفسك بالانفعال العاطفى والانفعال الذهنى؟

ـ لأن الانفعال هو الجو الطبيعى الذى نستطيع فيه أن نبحث عن علاقتنا بالحياة، وعلاقة الحياة بنا؟

قال: وإلى متى نظل نبحث عن هذه الحقيقة؟

ـ حتى نجدها!

قال: ومتى نجدها؟

ـ عندما نموت!!

* * *

obeikan.com

الفن والحرية

● كنت إلى عهد قريب مولعاً بالتردد على حديقة الحيوان. وكلما رأيت الأسد في قفصه الكبير.. شعرت بحسرة شديدة عليه!!

إنه هنا يجد طعامه، وراحته. ومأواه.

يعتنى به حارس، ومدرب. وطبيب.

ولكنك تحس أنه ليس أسداً.. وإنما هو ذكرى أسد.. زئيره أنين. وأنيابه أسنان، ومخالبه أظافر!!

لقد فقد طبيعته في إشاعة الرعب منه. والإعجاب به. والتحدث عنه.. ولن يجد هذه الطبيعة إلا في الغابة...!

والفن مثل الأسد، ينبغي ألا نحبسه في أقفاص من المذاهب، والنظريات والتوجهات.. بل يجب أن نتركه في غايته ينطلق على طبيعته، لنشعر به.. نشعر بخطره وقوته وقدرته على أن يثير فينا الدهشة، والنشوة والاستعداد لمقاومة الأخطاء والأخطار... إذا حبسنا الفن ومنعناه من انطلاقه، فإنه سيصبح موعظمة، ربما كانت حسنة.. ولكنها لا تجدى!!

* * *

التوقيت الصيفى

● تبينت الليلة أن ساعتى ما زالت تسير حسب التوقيت الصيفى... فعندما قدمتها ساعة فى الصيف، شعرت بأنى استدنت من النهار ساعة، وفرحت كعادتى كلما أستدين!

ولما أعلنت الدولة عن انتهاء التوقيت الصيفى. خيل لى أنى مطالب بتأدية الدين.. فما طالت كعادتى أيضاً فى تأدية الديون.وأبقيت الساعة.كما هى!!

وأنا أكتب هذه السطور، وعقارب ساعتى تشير إلى التاسعة والنصف، وراديو القاهرة يذيع نشرة أخبار الساعة الثامنة والنصف!!

* * *

obeikan.com

النسيـــان

● هذا الشارع. كم أثار خوفى، كنت أشعر وأنا أسير فيه أنى أمشى على جثتى! فتنتابنى رعشة تشدنى من رأسى إلى قدمى..

أحس أن شعر رأسى دبابيس، وعرقى ماء يغلى... أنفاسى مبهورة من الفزع، وخطواتى مثل أنفاسى!

ومنذ أيام اخترقت الشارع بقدمين تنبضان بالطمأنينة والثقة، أعصابى هادئة، هواجسى مسترخية، وخيالى كسول!...

لم يعد فى الشارع ما يخيفنى أو يفزعنى، كان لى فيه حب حطمنى، مزقنى. ذبحنى... حاولت أن أنساه ولكنه كان يتعقبنى ولا يريد أن ينسانى!..

ونسينى حبى... نسى أن يتعقبنى!

أيها النسيان ما أرحمك فلولاك ما استطعت أن أحيا!

* * *

ذاكرة قوية وقلب ضعيف!

● امتدت السهرة إلى منتصف الليل، أكل المدعوون وملؤوا بطونهم وأخذوا يتثاءبون، وإذا السهرة كلها تتثاءب!...

وبغتة اهتز البهو الكبير وارتعدت مقاعده التى يشغلها عدد من الناس، فيهم الشاب والكهل، وسيدتان حائرتان بسنيهما بين الشباب، وادعاء الشباب!

واتجهت أنظارهم جميعاً إلى عشرين عاماً... ترتدى فستاناً أزرق...وقد تشبث الفستان بقوام رشاقته حملت العدوى إلى مشاعرنا، ونظراتنا، وإشارات أيدينا... إنه لا يتحرك.. ولكنه ينبض كقلب خائف... يعلوه وجه اطمأنت قسماته... الفم أحمر كالورد... تفتحه كلمة، وتغلقه ابتسامة... الخدان ملتهبان كحريق... أنفها صغير كسنها... وشعرها كليل الشتاء.. أسود وطويل والعينان فى لون الفستان.. زرقاوان!

ولم تكد تأخذ مكانها فى البهو، حتى ارتفعت أصوات المقاعد وهى تزحف لتقترب منها...

وكنت أجلس إلى جوارها. فمالت على أذنى وهمست: هذه الحركات تزعجنى.

قلت: هل تزعجك عدسات التصوير؟

ـ لا... طبعاً.

قلت: إنهم يحاولون أن يلتقطوا لك بعدسات عيونهم صورة يحتفظون بها فى قلوبهم... فلا تنزعجى منهم!

ـ أنت إنسان مهذب، ولهذا لم تحاول أن ترتكب مثل هذه الحماقات...

قلت: لقد سبقتهم إلى هذه المحاولة.. عندما لقيتك منذ شهرين.. ألا تذكرين؟

ـ ذاكرتي ضعيفة.

قلت: وقلبك؟

ـ قلبي قوي... وضحكت...

ثم سألتني: وأنت؟

قلت: أنا؟ ذاكرتي قوية... وقلبي ضعيف!

* * *

obeikan.com

حكم القدر!

● عندما رأيتها لم أعرفها... الملامح الحلوة الصارخة بالدفء والجاذبية والنضارة.. تحولت إلى رسم كاريكاتورى لعجوز شمطاء!

الشعر الأصفر اللامع، المتوهج أصبح حفنة من حشائش ذابلة، معفرة بتراب أبيض!!

الجسد الممشوق كالسيف انحنى على نفسه وصار عصا ملتوية من طرفيها.

أهكذا يفعل بها الزمن.وهى ما تزال فى الأربعين؟!

وعرفت ما جرى لها. ولم أستطع أن أخفى عنها دموعى وهى تنحدر ساخنة كعرق يتصبب من جبين شقى... فقد ماتت ابنتها وثوب زفافها ينتظرها عند الخياطة..

ولم أسأل كيف ماتت؟ فلا أحد يملك الجواب عن سؤالى إلا القدر.. وهو لا يسمع، ولا يتكلم!

* * *

بين اليأس والأمل!

● سألنى: هل تؤمن بالصداقة؟

ـ أو من بالحياة...

قال: أنا أسألك عن الصداقة لا عن الحياة...

ـ لا حياة بلا صداقة!

قال: أى أصدقائك أحب إليك.. من يخدعك؟ أو يصارحك؟

ـ من لا يتخلى عنى... حتى ولو خدعنى!

قال: ألم يسئ إليك أصدقاؤك الذين تعتز بهم؟

ـ الصداقة تغفر الإساءة!

قال: من هم الأصدقاء الذين احتفظت بصداقتهم طول حياتك؟

ـ لقد دخل حياتى صديقان ولن يخرجا منها... أحدهما أستريح إليه لأنه يخدعنى، ولا يتخلى عنى!

قال: من هو؟

ـ الأمل... أما الصديق الآخر فأنا أضيق به لأنه صريح، حاسم يواجهنى بالحقيقة، ولو كانت فيها دمارى!!

قال: من هو؟

ـ اليأس...

قال: إذن أنت تنفر من الصراحة، ويستهويك الخداع؟

ـ أنا أحب أن أسمع الغناء، ولا أطيق أن أسمع دقات الساعة.. واليأس ساعة مضبوطة تدق بصدق... أما الأمل فإنه صوت جميل يكذب... ويغنى!!

* * *

obeikan.com

لا تظلمينى

● اذهبى... لا تعـودى فلن أنتظرك أبداً... ولكن لا تظلمـينى... لا تتهـمينى بأن تعبـيرى عن حبى أهان رشاقتك... فأنا لم أتعـمد أن أهينك يوماً.كل ما حدث أني ـ يا.. لغفلتى !! بدلاً من أن أطوق خصرك بذراعى... طوقته بقلبى!

* * *

Obeikan.com

أيها الليل، يا حبيبى!

● أيها الليل، ياحبيبى... ألم يعد لنا مكان نلتقى فيه إلا غرفة نومى؟!

أين الشوارع، والملاهى، والفنادق؟!

أخرجنى من بيتى كما كنا نفعل أيام الشباب... واسهر معى حتى أرى أصدقاء عمرى... السحر، والفجر، والصباح!

أيها الليل ياحبيبى... اترك عناء نومى للنهار!!

* * *

obeikan.com

مارسى حماقاتك!

● هل يمكن أن يعيش العصفور بلا هواء؟!.. كذلك أنت ياعصفورتى.. لابد لك من هواء تعيشين فيه، لابد لك من حماقة تعذبك أو تعذبنى... وقد أصبحت عاجزاً أن تعذبنى حماقاتك... فمارسيهاكما شئت وعيشى. وتعذبى!!

* * *

Obeikan.com

أيام الصفاء

● كلما استقبلت يوماً جديداً، شعرت بأني معه في عربة... فلا أعرف أين أنا منه، ولا أين هو مني؟ حتى لأكاد أسأله: من أنت؟ وأكاد أسمعه وهو يسألني في ازدراء: من تكون؟!

ولا أحد منا يستطيع أن يجيب، فاليوم مثل الإنسان كلاهما لا يعلم لماذا يلتقي بالآخر؟! وكلاهما لا يدرى لماذا يرحل، أو لماذا يجيئ؟!

الأيام الوحيدة التي أشعر فيها بالألفة، والطمأنينة، والتجاوب مع إنسانيتي.. هي هذه الأيام، ولا أدرى لماذا؟! ربما شغفي بها، منعني عن التفكير فيها... ربما لأني أصوم عن الطعام، والشراب، والشك، والظنون، وأستغرق في إيمان عميق بالله، حتى ليخيل لي أنه خالقي، وصديقي... فأناجيه، وأعاتبه، وأعانقه، وأغمر ذاته المقدسة بقبلاتي!

في هذه الأيام، تصفو روحي، فلا خوف، ولا قلق، كل الناس أحبابي.. السعداء يبتسمون بشفتي، والمحبون تخفق قلوبهم في ضلوعي... والمساكين الكادحون الصائمون.. يعرقون بجبيني، ويجوعون بمعدتي، ويظمؤون بحلقي، ويئنون بأنفاسي!!

* * *

بين الجمال الرقيق
والجمال العميق!

● سألتنى أيهما أجمل: أنا... أم هى؟

ـ أنتما!

قالت: ألا ترى بيننا أى فارق؟

ـ أرى... إن جمالها رقيق، وجمالك عميق!

قالت: وما الذى يستهويك... الرقة، أم العمق؟

ـ الرقة يد تقود الأعمى فى الطريق... والعمق سوط يلهب ظهر الحصان ليحثه على أن يسرع الخطى..

قالت: وهل أنا يد، أم سوط؟

ـ أنا حصان!

قالت: هل أفهم من ذلك أنى سوط يلهب ظهرك؟

ـ افهمى!

قالت: وأنت... هل تحب أن تكون سوطاً، أو تحب أن تكون يداً؟.

ـ أحب السوط.. ولكننى لا أتمنى أن أكونه!

قالت: هذا كلام غير معقول... كيف لا تحب لنفسك. ما تحبه فى غيرك؟!

ـ إننى أحب رقص الغوازى، ولكننى لا أمارسه، ولو شنقونى!

قالت: وهل ترانى راقصة؟

ـ وغازية أيضاً!!

* * *

لا أهاب الغدر!

● الحب جمعنا، والحب فرقنا... مأساتها أنى كنت حبها الأول... ومأساتى أنها كانت حبى الأخير!

هل يجمعنا الحب مرة أخرى؟ كل تصرفاتها تقول لا... وكل تصرفاتى تقول ربما!

كم أتمنى أن تنتصر «لا»... على «ربما»، فقد أقتنعت بأن تجربتى الفاشلة، لا ينبغى أن تتكرر!.

أننى لا أهاب الغدر.. ولكنى أهاب أن أتعذب من الغدر أكثر مما تعذبت!.

* * *

obeikan.com

ليتنى كنت فلاحاً

● كلما نظرت إلى أمسى ويومى.. أصابنى الفزع!! فأنا حتى هذه اللحظة.. أعيش على الدين.ليس عندى ما أملكه.. حتى ملابسى... فهى بالتقسيط! وقد عرفت ناساً عقلاء حسبوا لغدهم الحساب... فلما أدركتهم الشيخوخة مثلى.. وجدوا ما ينفقونه على أنفسهم بلا تعب!.

أما أنا.. فلا أستطيع أن أحصل على ما أروى به ظمئى.. إلا بعرق عقلى.. ولا أستطيع أن أظفر بما يمسك رمقى.. إلا إذا أنهكت ما تبقى من قواى..

وفى أول شهر أواجه وحشاً مفترساً.. هو أقساط الديون التى لا تريد أن تنتهى!

تمنيت لو كنت فلاحاً أملك فداناً أزرعه بنفسى. ولا أقرأ إلا الخضرة والسحاب، والشمس الساطعة، وظلام الليل... ولا أسمع من الموسيقى إلا زقزقة العصافير، وحفيف الأشجار، وأصوات الحيوانات، وأزيز الساقية!.

* * *

لا أستطيع مصارحتها

● الجلسة صاخبة.. أضواء مثيرة، وأصوات عالية، وأنغام موسيقى وجلست وحدى فى ركن منعزل، وجاءتنى تتهادى فى رشاقة، شعرها الأسود يكاد يفترش بخصلاته المتهدلة جسدها الأبيض، وخدها الأحمر، وقد أشرقت من فمها ابتسامة تغرى بالتفاؤل والأمل.. وجلست إلى جانبى وسألتنى: لماذا تجلس وحدك؟

وقلت لها: سأنضم إليكم بعد قليل.

وعادت تسألنى: هل يشغلك شئ.

قلت: تشغلنى أشياء!.

قالت: هل أكوّن متطفلة إذا سألتك عن هذه الأشياء؟

قلت: أنا فى حالة عاطفية.. لا أعلم ما هى؟

قالت: أظن..

قالت: من هى السعيدة التى اتجه إليها قلبك؟

ولم أجب عن السؤال، فعادت تسألنى:

ـ ألم تصارحها بحبك؟

قلت: لا أستطيع!

قالت: إنك دائما تستطيع أن تحب، وأن تعبر عن حبك بشراهة؟

قلت: لو صارحتها بحبى... لنفرت منى!

قالت: أنها إذن لا تستحق أن تحبها..

قلت: بل هى تستحق ما هو أكثر من الحب!

قالت: لماذا لا تصارحها، هل هى قاسية؟ هل هى غبية؟ وصرخت فيها.

قائلا: اسكتى! إننى لا أطيق أن أسمع من اتجه إليها قلبى وهى تصف نفسها بالقسوة والغباوة!

ولم تفهم ماذا أعنى... أو لعلها فهمت وسكتت!!

* * *

obeikan.com

تكلمى قبل الوداع!

● ما أقسى الفراغ الذى أعانيه فى هذه الأيام، إنى أتصوره وحشا يفترس نبض قلبى.. وخلجات ذهنى!!

لست أطمع فى أن تملئى فراغ حياتى بأن تمسحى دموعى بلمسات يديك، فكل ما فيك كاذب... المشاعر، الأفكار، الصمت، السكون!

ولا أخدع نفسى... فأنكر أنى مازلت أحب هذا الكذب بصدق مجنون! ولكنى يائس من حبى... ولن أجرى وراءه بعد ما فتحت باب قلبك وقذفت بى إلى الفضاء!

كل ما أطمع فيه وقد انتهى ما بيننا أن أسمع منك كلمة وداع، كلمة أسى، كلمة كراهية.. فحرام أن يذهب هذا الحب، هكذا بلا كلمة!

إذا كانت الكلمات ثقيلة على شفتيك الرقيقتين فلا أقل من أن تحركيهما بحرف.. بابتسامة.. باشمئزاز.. افعلى أى شئ إلا أن تسكتى!!

* * *

أغفر لى يارب مرضى!

● أغفر لى يارب مرضى، وأغفر لى غفلتى عندما تصورت طول عمرى أن المرض داء يعالجه الطبيب، وليس جريمة يرتكبها المريض!.

إننى يارب لست حسن الظن بنفسى.. حتى أتمنى جنتك الخالدة!! فأنا قانع بدنياك هذه الفانية!!

أريد أن أعيش فى الدنيا التى أبدعتها ـ سبحانك ـ لأتفاعل معها، وأتغنى بها... فامنحنى الصحة لكى أستطيع دائما أن أتفاعل.. وأن أغنى!

* * *

الصاروخ والقمر!

● قالت: أليس للحب نهاية ؟

ـ لكل شئ نهاية.

قالت: وهل الحب شئ؟

ـ إنه جوهر كل شئ!

قالت: وما علاقة الحب بالدنيا؟

ـ الدنيا مغامرة عاطفية!

قال: هذا خيال!

ـ ربما... ولكنه أيضا حقيقة!!

قالت: كيف؟

ـ ألا ترين أن الدنيا لقاء وفراق... ومطاردة؟

قالت: لا أرى...

ـ فى الدنيا نلتقى بالحياة وفى الدنيا نفترق بالموت... الليل يطارد النهار فى شوق... والقمر يلهث وراء الشمس فى شغف!.

قال: وما رأيك فى الأقمار الصناعية والصواريخ؟ هل هى الأخرى حب؟

ـ إنها تعبير علمى عن الوصول إلى القمر الطبيعى الذى أحبه العشاق!!

قالت: والأرض؟

ـ إنها مثل المرأة اللعوب.. لا تكف عن الدوران!

قالت: وأنا... وأنت؟

ـ أنا صاروخ... وأنت قمر!!

* * *

obeikan.com

غموض المرأة!

● أنا لا أفزع إلا من شيئين.. آلام مرض لا أعرفه، وغموض امرأة أعرفها... وقد أتحمل آلام المرض، بأمل أو بيأس.. أما غموض المرأة.. فلا يجدى معى أملى فيها، أو يأسى منها... إن غموض الرجل يثير فيه ريبة أصدقائه.. فيبتعدون عنه، والمرأة الغامضة تثير الريبة فيمن يحبها إن كل خلجاته.. ونبضاته تظل تسأل فى حيرة عن سر هذا الغموض.. إذا أبدت الرضا.. ظن أنها تخدعه.. وإذا غضبت منه.. اعتقد أنها تكرهه.. وإذا كانت وحدها... سعى إليها... فيحس وحده بجوارها أنه فضولى، متطفل، ضيف غير مدعو!!

وإذا أقبلت عليه فكر فيما ينطوى عليه إقبالها من نيات ماكرة! ولا حيلة لمن يحب.. فى أن ينزع من نفسه هواجسه التى أكدتها التجارب... وما أكثر تجاربى!! وكل تجربة منها أثبتت لى أن غموض المرأة لعنة تتعقب مشاعرى وتفكيرى... بقسوة ضارية!

إلى متى تطاردنى اللعنات.. حتى بعد ما أصبح الحب ذكرى لن تعود..فالذكريات كالأيام التى تمضى، ربما كانت قريبة منا... ولكننا لا نلتقى بها أبدا!!

* * *

بين الحياة والموت!

● ما أعجب هذه الصحراء.. كل شئ فيها يشبه الآخر... الناس متشابهون فى حركاتهم... وفى الانقباض البادى فى مسحات وجوههم... القبور متشابهة.. كلها أحجار وطوب وزهور، وماء يبل الثرى، كلها يضم عظاما نخرة..

هنا، تحت المقابر... تساوت الأعمار، والقيم... الشاب والشيخ، والذكى والغبى، ومن كان له مثل أعلى فى الحياة، ومن غادر الحياة ولم يكن له فيها مثل أو هدف!

ووصلت إلى المقبرة التى تعودت أن أزورها فى أكثر من مناسبة.. ففيها يرقد أحبابى الذين تركوا حياتى وذهبوا إلى حيث سنذهب مثلهم.. حاولت أن أبكيهم فتعثرت الدموع فى محاجرى.. حاولت أن أرثيهم فلم تنطلق منى إلا كلمات خرساء!!

ووقفت فى خشوع، ثم جثوت فوق التراب الذى ضمهم بالأمس وسيمضمنى غدا وأحنيت رأسى إجلالا للموت الذى احتواهم بين ذراعيه بهاتين الذراعين سيحتوينى يوما!.

أيها الموت أنا لاأخافك ولكنى لا أفهمك!! فمن تكون؟! هل أنت تنزف دماءنا وأعمارنا لتروى ظمأك.. أو لتروى ظمأ الحياة؟!

ما أنت ياموت؟! وما الحياة؟!

يا أسفى على أنى أعيش حياتى ولا أعرفها، وألقى الموت دون أن أعرفه!

* * *

ولعى بالجمال !

● إن ولعى بالجمال لا يقف عند حد.. فأنا أحب الجمال فى الطبيعة، والفن، والأخلاق، والمرأة...

وهذه الأشياء تعبر بصدق عن جمالها.. أما المرأة فهى وحدها القادرة على التعبير عن الجمال بإغراء!.

والصدق يعطينى صورة مستقيمة للجمال، والإغراء يعطينى صورة ملتوية... ولكن هذا الالتواء يشدنى من مشاعرى... ويلوينى معه!.

بين الناس من يسمى هذه التجربة حبا، وبينهم من يسميها وهما... ولقد عشت التجربة أياما، ولا أدرى إن كنت أحب.. أو كنت أتوهم؟!

* * *

الجمال المرتاب!

● كل من رآها هزته بملامحها الجميلة الدقيقة، إلا أنا... فإنى أحس كلما رأيتها براحة من الاهتزاز!.

فهذه الملامح ربما كانت حلوة، ولكنها مترددة، مرتابة... أنها لا ترى... ولكن ترسل نظراتها إلى غير اتجاه! لا تبتسم.. ولكن ترسم فوق شفتيها ابتسامة... دموعها مثل ابتسامة مرسومة!.

لم تقنعنى بأن أفكر فيها بنشوة أو ألم، وما لا يقنعنى لا يجذبنى إليه... إن الحياة نفسها لم تجذبنا إليها... إلا بعد ما أقنعتنا بفتنتها!.

* * *

خواطر الصحراء

بدت لنا الصحراء الشقراء كالمرأة الحقود، قلبها أسود فى هذا القلب الأسود قطعت بنا السيارة أكثر من ثلاثمئه كيلو فى أقل من ثلاث ساعات..

وعلى جانبى الطريق تراكمت الرمال كتراكم الأعمال فى مصالح الحكومة، وتبدى لنا البحر الهائج المائج عاليا كالشباب هابطا كالكهولة نائما ولكن كما تنام الأقدار. وعلى الشاطئ الممشوق تنام أجساد وتستيقظ قلوب. قوام كالسيف فى قلبى منه جروح وعين السحر بعض ما ينطوى عليه جفناها، وشفة تلهم القبل وخد تنبت نضارته الورد والبحر العربيد لا يقنع بما يحتويه من أجسام فيلاحقها على الشاطئ ليسيل على القوام أو يسيل على الهندام كما يسيل الندى على أوراق الزيتون.

* * *

الطريق إلى الليل

ما أجمل ليل القاهرة.. السماء صافية، والنيل فاتن، والجو ناعم رقيق.. والنسمات حلوة تتسلل إلينا فى حنان ساحر، تكاد من حنانها تقبلنا وتحتوينا بين أحضانها!

ولكن الطريق إلى الليل مثل الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره.. فالنهار هو الطريق الوحيد إلى الليل... وما أشد ما نقاسيه من عذاب النهار.. حرارة مرتفعة إلى درجة الغليان جو شرير يخنق الأنفاس، ويشد الأعصاب، وينفذ إلى المخ، والكبد، والكلى والمصارين يضغطها ويعصرها ويكويها بالنار.

لقد نجحت المخترعات الحديثة فى تخفيف الويلات الظاهرة للحر ولكنها لم تنجح فى منع الحر من ممارسة إيذائه للناس فى صحتهم وفى تفكيرهم.

* * *

أمـواج قلبـى

هذا البحر. كم عرفته ثائراً يعربد كسكران، ويتمرد كعقل فيلسوف... مياهه تهدر، وتزأر. وتنطح الشاطئ، ويمد لسانه إلى الرمال يلعقها، ويحمل على كتفيه المصطافين العرايا، فيعلون فوق الموج، أو يهبطون تحت الموج!

إنه فى هذه الأيام يعانى هدوءاً غبياً، واستكانة بليدة... لقد مد ذراعيه، وساقيه، واستلقى على ظهره، وتدثر بغلالة زرقاء كلون السماء التى بدت من بعيد وكأنها قبة انغرست جدرانها العريضة فى أعماق البحر، وملأ سقفها رقعة الفضاء!!

الماء لا يركد، ولا ينتفض، ولكن يتحرك فى غموض كسطور مكتوبة فوق شاشة السينما... كلما حاولت أن تقرأ سطراً اختفى وظهر سطر آخر يختفى أيضاً قبل أن تقرأه!

ورنوت إلى البحر بعيون كثيرة مبهورة، عيون ذكرياتى، وانفعالاتى، وخلجات نفسى!!

هل هو مريض؟ هل هو حزين؟ هل هو ينفض قلبه من غبار حب قديم، ويتهيأ بنبضاته لحب جديد؟.

لا... إن البحر الساحر العبقرى، فنان، إذا لم يجد حوافز خارجية تشحذ صخبه، عكف على تأملاته، وهدأ، واسترخى!

وهو الآن لا يجد ما يحفزه إلى الصخب، ولا ما يغريه بالنشوة... لقد كانت شواطئه مسرحاً لرقصاته على أنغام موسيقى يعزفها قوام رشيق

يتلوى من انهيال نظرات الإعجاب عليه! وملامح جذابة حادة دافئة، تلهب الأشواق، وتنتفض بها العروق، وبشرة متوهجة ناعمة، شقراء وبيضاء، تحسدها الشمس ويغار منها النهار... وشعر أسود فاحم لامع تتهدل خصلاته على العين المتحفزة دائماً للسحر والفتنة!

ونام البحر... بعدما سكتت الموسيقى التى لا تعزف إلا فى موسم الصيف!.

استيقظ يا بحر.. فإن هنا على شاطئك من تغريك وحدها بأن تنتشى، وتترنح، وتغنى، وتضرب بأمواجك الصخور والرمال... ولا تسألنى عنها... فلست أعرفها... كنت مثلك نائماً، ورأيتها فاستيقظت مشاعرى وتلاطمت أمواج قلبى!.

* * *

أتمنى فى شيخوختى!

● ناس تتجمع وتتفرق، ذراع مشبوكة فى ذراع، أحضان تعبر عن فرحة اللقاء، ولهفة الوداع. قبلة على جبين، ابتسامة رزينة، قهقهة مجنونة، أصوات تعلو، وتنخفض، رؤوس تدنو من رؤوس، مقاعد، موائد، جرسونات، باب واسع يلتقى فيه القادمون والراحلون... من رجال، ونساء، وأطفال، وحقائب...

وردهة الفندق تمتلئ فى أول الليل كبطن أكول... وتفرغ فى آخر الليل كقفص الاتهام بعد ما تنتهى جلسة المحكمة!

وجلست وحدى أراقب من يأتى، ومن يذهب، فيهم من أعرفه، ومن لا أعرفه، ولمحت بينهم توأمين من مواليد إيطاليا، وقد عاشا فى الأسكندرية منذ زمن بعيد، وهما الآن فى حدود الثمانين. أحدهما تزوج وهو شاب، والآخر لم يتزوج، وكانا يتجهان إلى الباب، وفى خطى متشابهة..؛. الأخ المتزوج يتعثر وهو يستند إلى ذراع زوجته التى تصغره بعشرين عاماً... فهى فى الستين فقط والأخ الأعزب يتعثر وهو يتوكأ على عصاه!

وأحسست أن القدر ساق إلىّ هذا المنظر لأتمنى مصيرى عندما أصبح شيخاً محطماً... هل أواجه شيخوختى وأنا أتوكأ على عصا، أم أواجه شيخوختى وأنا أتوكأ على ذراع زوجة!

ولم أتردد أن أتمنى... تمنيت أن تكون لى عصا!.

* * *

لا تطاردينى

● لا تطاردينى هكذا... إننى لا أراك. ولا ألتقى بك. فلماذا ترغميننى على أن أعيش معك دائماً بالخيال والذكرى؟

ما أقسى هذا الجمال الذى يتعقبنى.. كلا... ليس ما يتعقبنى جمالها، ولكن الذى يتعقبنى حنينى الطائش، ووفائى الأحمق!

* * *

obeikan.com

يد الله

● الشوارع، مثل الناس، بينها الغبى الثقيل الظل، وبينها الذكى الخفيف الروح... والطريق الصحراوى أنيق رشيق، ذكى. ولكن ذكاءه يخونه أحياناً فيفقد أناقته، ورشاقته، وخفة روحه، ويصبح طريقاً غبياً ثقيلاً، كوجه كالح اختفت ملامحه وراء التجاعيد، أو كقوام ممشوق أصابه الترهل... فصار له أكثر من كرش بارز... أعضاؤه مسترخية، وأنفاسه تلهث من فرط الإعياء!

وكم أضيق بهذا الطريق إذا قطعته فى صحبة ناس شعورى بهم غامض! إنى لا أحس دمامة الطريق... وغباوته ليس إلا، ولكنى أحس أنى لا أتحرك فوقه، وإنما هو الذى يتحرك فوقى!

ولقد أخذنى الطريق اليوم بسحره أخذاً لذيذاً، كانت السيارة التى تحملنا لا تخترقه، ولكن تلثمه وتعانقه فى شوق ونشوة... الحصا الصغير المنثور فى رحاب الصحراء لا يلمع تحت وهج الشمس ولكن يبتسم! الرمال الغزيرة تفرش حافتى الطريق كبساط أصفر! الهواء يتحسس النوافذ بأنامل باردة، يغطيها قفاز، من جو الخريف!

وكنت أتابع الشمس وهى تتدثر بالسحاب، وتتعرى من السحاب ويحتقن لونها، ويبهت، ويمتقع. ثم أخذت تتكمش وتتلاشى حتى أصبحت خطوطاً حمراء وبيضاء...

أين ذهبت؟ لقد كانت منذ لحظة قرصاً ملتهباً... كيف ذاب: قرصها هكذا، ولم يعد منه إلا خيوط ترتعش فى صفحة السماء؟!

لقد رأيت من خلال السحاب، يد الله. وهى تمحو القرص الملتهب، لتعيد رسمه من جديد!

نضب حنينى

كان يتمتم بصوت هامس كالنجوى... ويقول: يا خجلى منك! إننى أراك كما أنت، وعبثاً أحاول أن أغمض عينى... فإن عيوبك العارية، لاتقل فتنة عن ساقيك العاريتين!

ساقاك ترقصان فتثيران رعشة الحنين إليك... وعيوبك العارية الراقصة تثير سخريتى من نفسى، عندما كنت لا آراها!

غطى ساقيك... غطى عيوبك... فلن تثيرينى بعد اليوم... لقد نضب حنينى، ونضبت غفلتى!

* * *

عجلة الأيام

كلما مر بى يوم، اعترانى شعور يهزنى من أعماقى فى عنف وغموض. أحياناً يخيل لى أن اليوم الذى مضى قد سرق قطعة من حياتى. وأحياناً يخيل لى أن اليوم الذى مضى قد سرق قطعة من حياتى.. وأحياناً يخيل إلى ويومى يتسرب منى، إنى لم أفقد شيئاً... ولكنى تخلصت من ضيف ثقيل! فالأيام هى العمر. وهل العمر إلا ضيف احتل مائدتى، وهل أنا إلا ضيف احتل مائدة عمرى وكلانا بالنسبة إلى الآخر غير مدعو... ضيف ثقيل!

وأحياناً تنتابنى حيرة لا أستطيع معها أن أحزن أو أفرح... لأن الأيام التى تنقص من عمرى. تزيد فى سنى، وتجربتى. وثقافتى، وانفعالى بالجمال... فكيف أحزن على النقص، ولا أفرح بالزيادة؟ إننى دائماً ناقص، وزائد!

ولكن ما فائدة أن تزيد تجربتى وثقافتى... مادامت رقعة حياتى تتكمش وتضيق؟!

ما جدوى الانفعال بالجمال... ولم يعد فى استطاعتى أن أمارس انفعالاتى إلا بعين تلعثمت نظراتها... وقلب متعثر النبضات!

ما هذه الأيام التى تمضى إلى غير عودة؟ وإلى أين قد مضت؟

* * *

غدر البحر

● البحر يهدر فى عصبية وصخب... وكانت تتمدد على الشاطى، وتتقلب فوق الرمال فى كسل لذيذ... وقد كست قوامها الرشيق بالجاذبية، وعرته بالمايوه!

قالت لى: لقد اشتقت إلى البحر، أريد أن استحم، ولكنى أخشى الأمواج وهى فى هذه الحالة... إنها غدارة!

وسألتنى: هل هناك ما هو أشد غدراً من البحر؟

وقلت: نعم... بعض الرجال... وكل النساء!

* * *

obeikan.com

إنها تحتل قلبى

● من يدرى؟ لعل ربى رحمنى إذ أراد لحبى هذا المصير!

ولكنى أطمع فى رحمة اللّه، وفى عدالته معاً... أليس من العدالة وقد أقصانى عنها، أن يقصيها عنى؟

أنها فى مكانها النائى البعيد... وبرغم ذلك فهى معى... أغمض عينى فأراها. أصم أذنى فأسمعها... وأشعر بها تنطلق، وتجرى وتعدو فى رأسى كما لو كان رأسى شارعاً خالياً من الناس، ومن إشارات المرور!

إنها تحتل قلبى، وتتصرف فيه كما لو كان بيتها... تكنسه، وتمسحه، وتعيد ترتيب الأثاث... وتقابل فيه كل الناس... شخص واحد تهرب من لقائه... صاحب البيت!!

* * *

قلب متمرد على القواعد!

● رأسه أصلع، عيناه زائغتان، أنفاسه لاهثة، يسيطر القلق على كتاباته، وقراءاته، وضربات قلبه!

يحمل من الهموم ما يرفع سنه إلى الستين مع أنه لم يصل بعد إلى الثلاثين!

إنه واحد من كثيرين جداً بذلوا محاولات سيئة الحظ لخلق أشكال جديدة للشعر العربى، ولم تنجح هذه المحاولات، لأنها كلها متشابهة!

منح نفسه الحرية فى استخدام الأوزان والتفاعيل فى كل ما يخطر له من موضوع، أو لفظ أو معنى!

قال لى إن قلبه يخفق بغير قاعدة... أحياناً يسرع فى ضرباته، وأحياناً يبطئ فى ضرباته. وإن هذه ظاهرة تزعجه، وتثير فى نفسه الشعور، بأنه يوشك أن يموت...

وقلت له إن قلبك مثل شعر الذين قلدوك... يتحرر من الوزن والتفعيلات،،، وإذا كان هناك من يزعجه هذا التصرف، ويرى فيه علامة الموت، فلا ينبغى لك ذلك لأنك شاعر متمرد على القواعد!

ليس هذا رأياً فى الشعر المتجرد من الموسيقى فى الإيقاع والتعبير، وإنما هو رأى فى القلب الذى يتمرد على طبيعته الموسيقية... فيضطرب فى ضرباته وخفقاته بلا ضرورة، بلا دافع، بلا غاية!

* * *

لا تترددى

● عبثاً حاولت أن أفكر فيها وحدى!

كانت آلامى معى دائماً... سكيناً تمزق أحشائى، سوطاً يلهب مشاعرى، يداً تضغط دمى، وتخنق أنفاسى!

وأمس فكرت فيها دون أن أتألم... إنها لم تعد جديرة بألمى... كانت عظيمة وجميلة فارتفعت إلى ذروة آلامى، وقد أصبحت الآن جميلة فقط... فانحدرت إلى هاوية يتعفف عنها الألم!!

ولكن ما هذا الذى أحسه؟ لعله حيرة، لعله غيظ، لعله اشمئزاز... أم ترانى عفوت عنها فلم أعد أحبها؟ كلا... فما زلت ألاحقها بحبى... إن الحب مثل القانون... يحمى البرئ ويتعقب المجرم... وقد كان حبى يحميها... فأصبح يتعقبها!!

تعالى... لا تخافى أن تذكرينى بالماضى... إننى عندما أراك... لا أغوص فى أيام ذهبت، ولكن أتسلق ما بقى لى من أيام!!

ليس فى حياتنا، ماض وحاضر ومستقبل... حياتنا فترة واحدة هى الماضى...

الأمس مضى... واليوم يمضى... والغد سيمضى...

تعالى ولا تترددى... فلم يبق من عمرى ما يسمح بأن تترددى!!

* * *

أتحـداك

● أتحداك بحبى أن تكرهينى... فى استطاعتك أن تدمرى حياتى، ولكنك لن تستطيعى أن تخرجى من حياتى...!!!

قلبى واللغات

● حسبى أن أعرف من دنياى حقيقة واحدة، حقيقة الدمعة والابتسامة، ولكن كيف أعرف هذه الحقيقة؟ إن الدموع والابتسامات ليست حقائق، ولكنها لغات لا يحسن ترجمتها إلا القلوب...

إن قلبى فى هذه الأيام ضعيف فى اللغات إلى درجة تثير حيرتى...

الفن والحياة

● ليس الفن أن تنقل الأحداث كما هى... ولكن الفن هو الانفعال بالأحداث، والتعبير عنها بشعورك الذاتى... والفن الواقعى... هو إعادة بناء الواقع بخيال شديد.!!

* * *

عاقبها بذنوبى

● يا رب لا تعاقبها بذنبها... ولكن عاقبها بذنوبى... فليس لى ذنوب!!

أجمل أحلامى

● بعد فراق خمس سنوات... التقيت بها... ظننت يوماً أنى نسيتها، فلم أكد أراها حتى وجدتنى نسيت نفسى!

شعرت بخوف لذيذ وأنا أصافحها... كانت لحظات الكلام عذبة... ولحظات الصمت أكثر عذوبة!

وذهبت إلى فراشى وحاولت أن أنام لأعثر على حلم جميل... وعشت أجمل أحلامى... ولكنى لم أنم!

* * *

obeikan.com

الصداقـــة

● قال لى: ماذا تصنع إذا غدر بك صديق؟

ـ أتألم!

قال: ألا تكرهه؟

ـ لا!!

قال: كيف تتألم من شئ... ولا تكرهه؟

ـ ألا تتألم من الحياة؟

قال: جداً.

ـ هل تكرهها؟ هل تريد أن تتخلص منها؟

قال: الحقيقة أنى أتألم من حياتى ولكنى أتشبث بها!

ـ الصداقة كالحياة... نتألم منها... ونحبها!!

* * *

obeikan.com

الشاعر والملهمة

● لا تختفى عنى... فلست عدواً حتى تتهيبى لقائى، ولم أعد ذلك العاشق الذى تجدين راحتك فى أن تعذبيه بالهجر، والقلق!... وإنما أنا شاعر، وأنت ملهمة، وكلما رأيتك حلقت فى آفاق جديدة من الجاذبية، والرقة، والجمال... فأعبر عن مشاعرى بكلمات تنبض، وتضئ، وترتعش... لماذا تضنين على كلماتى، بالنبض... والضوء... والرعشة؟!

تناقض حياتى

● إننى أعانى تناقضاً رهيباً فى حياتى. جسدى أرهقته الشيخوخة... ومشاعرى لم تتجاوز مرحلة الطفولة... وتفكيرى فى عنفوان الشباب!

ليتنى أستطيع أن أتخلص من شيخوخة الجسد، وطفولة المشاعر، وأحتفظ بالشباب فى جسدى... ومشاعرى... وتفكيرى. فالحياة ليست هى الطفولة، وليست هى الشيخوخة قطعاً... إن الطفولة مثل الشيخوخة تعثر وطيبة، أما الشباب... فهو وحده الحياة... إنه الطيش، والانطلاق.

أريد أن أطيش... أريد أن أنطلق... أريد أن أحيا!

* * *

فى الهاوية

● قالت لى: لماذا لا تنصحها بألا تهدر سمعتها، وتقتصد فى ممارسة نزواتها بهذه الطريقة التى تثير الاشمئزاز؟

ـ عندما حاولت أن أنصحها... كانت قد ألقت بنفسها... من قمتها إلى الهاوية!!

.. من العبث أن أقول لها عودى... فهى لن تسمعنى، ولو سمعتنى لعجزت عن العودة بعدما انحدرت من القمة وأصبحت بين أحضان الفضاء... كل ما أستطيع أن أفعله... هو أن أصرخ وأبكى، ولقد صرخت، وبكيت!!

قريب من الله

● كلما انتابنى مرض... أحسست أنى قريب من الله، وفى هذه الأيام لا أشعر بأنى قريب من الله فقط... ولكن أشعر بأننى بين أحضانه!

* * *

ترفقى يا حريقى

● لماذا تحاولين أن تدمرى يأسى منك، بعدما تبدد أملى؟! إنك لا تريدين لى أن أستريح... لقد أصبح التنكيل بطمأنينيتى هواية تمارسينها بخفة وبراعة!

أى خاطر شقى أغراك بأن توقظى تليفونى من غفوته التى استمرت ثلاثة أشهر؟!

لقد أحسست وأنا استمع إلى صوتك فى التليفون... أنك تحرقيننى بنبراتك التى تشعل النار فى مشاعرى كلما سمعتها أو تذكرتها!

... ولكنك لن تستطيعى أن تحرقى قلبى... فلقد احترق... ولم يبق منه إلا الرماد!

دعى تليفونى... إنك لا تديرين أرقامه... ولكن تديرين رأسى وتلهبينه.

هل تريدين بعدما أحرقت قلبى... أن تحرقى رأسى أيضاً؟

ترفقى بى يا طفلتى... يا حبيبتى... يا حريقى!!

احتشمى يا ذكرياتى

● احتشمى يا ذكرياتى... لا تحاولى أن تردينى إلى الماضى الذى هربت منه... بعد ما عض مشاعرى، ولوى قلبى!

لا تسرقينى

● افهمينى على حقيقتى... إننى لا أجرى وراءك... ولكنى أجرى وراء دموعى، وأنفاسى وخلجات نفسى، أريد أن أستردها بعدما خسرتها على مائدة الحب... تماماً كما يفعل المقامر الذى يخسر أمواله... وبرر خسارته بسوء الحظ، ولا يخطر بباله أن من يلعب معهم لصوص... وأنهم كلما لاعبوه تضاعفت خسارته!

العبى معى مرة أخرى... ولن أبالى سوء حظى، ولكن لا تسرقينى!

* * *

obeikan.com

هل الحب جريمة؟

● قال لى: أما زلت تؤمن بالحب؟

ـ أومن بأنه انتحار!

قال: ولكن الانتحار جريمة...

ـ والحب أيضاً جريمة تشبه جريمة الانتحار!

قال: أنا لا أفهم ما تعنيه!

ـ إن من يفشل فى ارتكاب جريمة الانتحار... يتعرض للعقوبة، ومن ينتحر فعلاً... يفلت من العقوبة... لأنه يموت!

قال: وما علاقة هذا بالحب؟!

ـ من يفشل فى ارتكاب جريمة الحب... يعيش فى عذاب.

قال: ومن ينجح؟

ـ أنا لا أتكلم عن الآخرين... أنا أتكلم عن نفسى!

ياويلى من طيشى

● العجوز الطائش... كالسهم الطائش.. كلاهما لا يصيب الهدف... يا ويلى من طيشى!

الفقـــر

● لو كان الفقر رجلاً لقتلته، ولكن الفقر، مع الأسف، رجل وامرأة!

الحـــب

● سألتنى: ما بال ساقك معوجة؟ هل أصابها كسر؟

قلت: لا. ولكن أصابتها عدوى من سلوك معوج!!

قالت فى ثقة خبيثة: وما الذى يرغمك على معرفة أصحاب السلوك الأعوج؟

قلت: الحب... يا حبيبتى!

* * *

obeikan.com

الحب والموت

● قالت: متى ستكتب قصة حياتى؟

ـ عندما أمارس حياتى!!

قالت: اكتبها الآن إذن...

ـ كيف؟ وأنا لا أعيش ولكنى أموت...

قالت: أنت تموت؟!

ـ نعم. لأنى لا أزال أحبك!

فصاحت غاضبة: هل تعتقد أن حبك لى موت؟

وقلت لها: اهدئى... لا ترفعى صوتك حتى لا يسمعك الموت... فيغضب منى!

* * *

obeikan.com

أصبحت مثل ساعتى

● أصبحت ساعتى مثلى... أصابتها الشيخوخة، فقدت توازنها، تريد أن تسير فتقف. تحولت دقاتها المنتظمة إلى سعال متقطع!.

كل يوم يبذل الساعاتى معها... ما يبذله الطبيب معى. ولكن الزمن أقوى من الساعاتى، ومن الطبيب!

حاولت التخلص منها، فماذا أصنع بها؟

... آه من يوم أرى فيه الناس يحاولون التخلص منى... لأنى أصبحت مثل ساعتى!!

* * *

obeikan.com

الزواج والحرية

● إنه يصغرنى بعشرين عاماً. ولما رأيته خيل لى أنه يكبرنى بعشر سنوات!! سألته عما به... فقال: زواج وخمسة أولاد!

قلت: أنت بطل.

قال: الزواج ليس بطولة... الزواج عبودية.

قلت: الإنسان الذى اخترع الزواج والسجون... ليس له أن يبكى على الحرية!!

نظراتك

● إن نظراتك الغامضة تكاد تأكلنى... كُلينى إذا شئت!!

ولكنى أكره أن تلتهمنى العيون. وأحب أن تلتهمنى الشفاه!!

* * *

obeikan.com

الحياة والموت

● سألتنى: ماذا بعد الحياة؟

ـ وماذا قبل الحياة؟

قالت: عدم...

ـ مستحيل... فالعدم لا يؤدى إلى الوجود.

قالت: ماذا قبل الوجود إذن؟

ـ وجود ينتهى إلى وجود!!

قالت: بقى سؤالى كما هو... ماذا بعد الحياة؟

ـ حياة...

قالت: ألا تؤمن بأن الحياة تفنى؟

ـ الحياة كشمس تشرق لتغيب... وتغيب لتشرق!

قالت: ألا يساورك الخوف من الموت؟

ـ مادمت حيّاً فلن أحس الموت حتى أخافه... وإذا مت...

فإنى سأصبح عاجزاً عن الشعور بالخوف أو الشعور بالطمأنينة!

قالت: لقد أرحتنى من هذه المشكلة...

ـ أية مشكلة؟

قالت: مشكلة الموت...

ـ الموت ليس مشكلة... الحياة هى المشكلة!!!

obeikan.com

أطلال امرأة

● لعن الله الأيام، ماذا صنعت بها؟! الملامح الناضرة المشدودة... كيف ذبلت وترهلت؟ العينان المنطلقتان بنظرات تنفث السحر بسخاء وتوجع القلوب بقسوة... كيف تحولتا إلى محجرين يتوكآن على نظارة سميكة تحجب الضوء والنظر... القوام الممشوق... كيف أصبح حزمة من حطب يغطيها فستان؟!

كنت أجرى وراءها... فأصبحت أجرى منها... كنت أخشى غدرها... فصرت أخشى وفاءها!

جاذبية الكذب

● آه من الكذب... ما أشد جاذبيته فى دمعتك... وفى ابتسامتك!

* * *

ابعدى طيفك

● اتركى لى يومى... لا تدعى طيفك يقتحم أحلامى ويوقظنى ويخدعنى بأنك بين ذراعى، فإذا صحوت... لم أجد إلا ذراعى!

اتركى لى يقظتى... لا تملئيها بشبحك الذى ينبض باللعنة والجاذبية... ماذا تبغين منى؟ هل تريدين أن نعود إلى حبنا القديم؟... ولكن كيف لى أن أبدأ بعدما انتهيت... ولم يعد لى قلب يقوى على أن يحب، ولا على أن يكره؟!

أريحينى من ذاكرتى... أريحينى من ذاكرتك!

* * *

سحر الذكريات!

● أصبح هذا الشارع مثاراً لذكريات تلسع نبض قلبى!

ففى هذا الشارع كم قضيت ليالى بلغ فيها شبابى قمة النشوة!!

وقد ظلت القمة كما هى. ولم يبق لى من الشباب ما أصعد به قمة. أو أمشى به خطوة!

وفى هذا الشارع، عرفت مئات من الأصدقاء... كانوا يسكنون أبنيته الجميلة التى تطل على البحر، وقد ذهبوا جميعاً إلى العالم الآخر وتركونى وحدى. وكلما مررت بعمارة... تذكرت صديقاً كان يسكنها فتنقبض نفسى وأقرأ على روحه الفاتحة.

هذا الشارع أصبح بالنسبة لى ساحة مقدسة، تشير أبنيتها إلى الأصدقاء الذين كانوا يملأونها... ويملأون حياتى، فرحلوا عنها وعن حياتى!!

ما بال هذه الأبنية قد استحالت إلى أضرحة... كلما رأيتها أحسست أن مشاعرى تصلى... وتسجد... وتركع!

* * *

آه من فمها

● آه من فمها...

الشفتان المليئتان الملتهبتان الحمراوان كقرص الشمس!!

الأسنان الناصعة البياض كالثلج!!

الابتسامة التى تحاول أن تظهر... ولا تظهر!!

هذا الفم يقول لى وهو صامت: احذرنى... سأخدعك!

فأكذبه ولا أحذره... ثم تمضى الأيام... فإذا بى أحبه، وأصدقه، وآمن إليه!!

يا قلبى المغامر!

● يا قلبى...

أيها المغامر العجوز!!

إنى فى الخامسة والخمسين، وهى فى العشرين...

إذا لم تخجل منى... فاخجل منها!

* * *

المتحف

● المتحف... هو المكان الطبيعى للذين يتمنون الشباب بلا جدوى!

وأنا لا أتمنى شبابى وحده... ولكنى أتمنى طفولتى أيضاً

فأين يا ترى مكانى؟!

أمواج البحر!

● أيتها الأمواج... اضربى جسدى... اصفعى وجهى!!

خذينى بين أحضانك... ولكن لا تخنقينى...

لو لم تكونى ماء... لكنت غانية!!

فما أشبهك بالغوانى... فيك ما فيهن من جمال، وغدر، وجاذبية!

قلبى العاشق

● إن قلبى لا يطيق أن يتسكع فى ضلوعه بلا عمل!!

ولذلك فهو حريص على ألا يعتزل الحب... حتى لا يتعرض للبطالة!

obeikan.com

خواطر وتأملات

شعرى

لا تحاول أن تنسب شعرى إلى مدرسة فنية بذاتها، كالواقعية، والرومانسية، والطبيعية، فهو متأثر بهذه المذاهب جميعاً، ولكنه لا يتقيد بمذهب واحد منها... إن فيه واقعية تعبر عن تجربة ما، وفيه رومانسية تحلق فى الخيال، وفيه طبيعة حرة لا تقف عندما هو كائن، ولكن تتحرق شوقاً إلى معرفة ما وراء الطبيعة!

ولا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبة الجبين... فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن؟ فإن المجانين وحدهم... هم الذين يضحكون للحياة، ويسمون ذلك تفاؤلاً...

لست متشائماً، ولست مجنوناً، ولكنى أحاول أن أكون صادقاً مع ما أشعر به، وما أفكر فيه!

وأنا فى شعرى ألتزم بإنسانيتى، وخلجات نفسى... وقد أعجز عن أن أنظم الشعر بطريقة أخرى، ولكنى لا أعترض على أية طريقة يثبت بها صاحبها أنه شاعر!

ولقد حررت أشعارى من القيود، وأخضعتها للقواعد. وعندى أن القيود هى نظم القصيدة من بحر واحد، وقافية واحدة، والحرص على تساوى عدد التفعيلات فى كل بيت من أبيات القصيدة.

أما القواعد، فهى الوزن، والإيقاع اللفظى والإيقاع المعنوى. وقد

حرصت على هذه القواعد لأنها الجوهر الصحيح لفن الشعر.

والشعر إذا لم يهز قلبك، وذهنك... فهو ليس شعراً. ولا يكفى أن ينبض فيك الشعر الذى تقوله، بل يجب أن ينتقل نبضه إلى قلوب الآخرين...

والشعر رقصة عاطفية وعقلية، ولابد للرقصة من موسيقى تصاحبها، وتقودها، وإلا صارت خطوات ملتوية!

وقد حاولت فى شعرى أن أغنى، وأبكى، وأرقص بصدق وموسيقى... ولا أعرف هل نجحت محاولتى أو فشلت؟

كل ما أعرفه أنى كنت صادقاً فى غنائى، وبكائى، ورقصى...

* * *

opelkan.com

خذوها... واطبعوها

هل عندى ما أقوله؟ ربما! ولكن هل هذا الذى أقوله يستحق أن أجمعه فى كتاب؟ ظللت طيلة اليوم أراجع أوراقاً لم أنشرها بعد. فوجدت قصصاً قصيرة، وقصة طويلة بدأتها فى عام ١٩٥٠، ولم أنته من كتابتها حتى الآن، عثرت على بضع قصائد تحتاج إلى إعادة النظر فيها وعدة بحوث عن حياة المتنبى، وأبى حيان التوحيدى، وسخرية أبى العلاء.

وأخذت أقلب فى المجموعات التى تضم ما نشرته لى الصحف خلال خمسة وعشرين عاماً وإذا هى تكفى من حيث كثرتها لإصدار عدة كتب تتناول عشرات الموضوعات. ومع ذلك فأنا أتهيب تأليف كتاب يحمل إسمى. وإنى لأعرف ناساً يبهجهم أن تصدر لهم دور النشر كل يوم كتاباً، أو قصة أو ديوان شعر، فما سر تهيبى مما يبهج هؤلاء الناس؟

ربما لأنى لا أثق بنفسى. وليس هذا تواضعاً، ولكنه شعور صادق بحقيقتى، فأنا أومن بأن الحياة نمو وحركة وفى كل يوم أنمو بالقراءة، وأتحرك بدراستى المباشرة للناس، فحياتى متطورة، وهذا التطور يغير نظرتى إلى الأشياء، فيثير شكوكاً فى آرائى أو يدعم هذه الآراء.

وكم من فكرة خطرت لى، فلم أجرؤ على إذاعتها، واكتفيت بتسجيلها فى دفتر أدفنه بين كتبى المتناثرة فى جميع غرف البيت حتى لقد صار بيتى أشبه بمقابر الصدقات!

وأحياناً تمتد يدى إلى دفتر من هذه الدفاتر فأقرأ فيه سطوراً تعجبنى، وأقرأ سطوراً أخرى لا تعجبنى، ثم أتركها كما هى، فمن يدرى؟

لعلها تعجب غيرى فيذيعها بعدما أصبح فى ذمة التاريخ، وهى ذمة تتسع للنابغين وللتافهين على حد سواء!

وقد يسأل واحد من القراء: لماذا إذن تسمح بنشر ما تكتبه من شعر ومقالات؟ وجوابى عن ذلك أنى لا أنشر شيئاً، ولكنى أدفن بعض ما أكتبه فى دفاترى الخاصة، وأدفن بعضه الآخر فى مطابع الصحف التى أعمل بها، ومن حسن حظى أن ما دفنته فى مطابع الصحف أصابه العبث، ولقى صداه عند قارئ، أو أكثر، فأصبحت كاتباً فى رأى بعض القراء!

أنا لا أجلس مع الناس لأقتل وقتى، وإنما أجلس معهم، لأخلق النبض فى حياتى، والطريقة التى أدير بها الحديث فى مجالسنا، تشحذ خواطرى، وتساعد أفكارى على تدريب عضلاتها!

وفى كثير من الأحيان أترك بيتى أو مكتبى بعد عمل دائم يستمر حتى منتصف الليل، وأذهب إلى حيث أجتمع بناس أستريح لهم، أو أضيق بهم. فالراحة والضيق يثيران شوقى إلى الكتابة، وأنا لا أعرف كيف أكتب دون أن أحس لذعة الشوق وحرارته.

وقد انتابنى فى هذا الصيف طموح إلى أن أطبع عدة كتب، وديوان شعر، ولم أكد أعود إلى القاهرة حتى عدلت عن تفكيرى. قد نسيت فى الاسكندرية طموحى مع رمال الشاطئ والمايوه.

أنت يا صديقى أحمد تصغرنى بعشرين عاماً على الأقل، وستعيش بعدى، وعندما تحترق سيجارة حياتى ويرسف القدر آخر نفس فيها، فاهرع إلى بيتى، وخذ ما تجده من أوراق وانشره على الناس، وما أقوله لك ليس مداعبة، ولكن وصية أسجلها هنا علناً، وعلى رؤوس الأشهاد!

وقد تأثرت فى مستهل حياتى بكلمة لناقد عربى قديم، وقد ذكر أن

الإنسان يظل بعقله إلى أن يؤلف كتاباً، أو يجمع ديوان شعر!

ويظهر أننى حرصت أكثر مما ينبغى، على أن أظل بعقلى! وشئ آخر تأثرت به، فقد قرأت منذ ثلاثين عاماً، أن الشاعر الفرنسى بول فاليرى كان لا ينشر قصائده، وإنما ينظمها، ويتركها ملقاة على مكتبه، ثم يعود إليها فينقحها ويهذبها، وكثيراً ما كانوا يترددون عليه - فإذا وجدوا قصيدة كاملة سرقوها ونشروها باسمه.

وكان إذا هاجمه النقاد لا يرد على هجومهم لأنه لم ينشر شيئاً!

وقد سوغ طريقته فى الإصرار على ألا ينشر آثاره، بأن جميع الشعراء والفنانين القدامى كانوا يصممون أعمالهم فى فترة قصيرة، ويخصصون أكبر فترة لوضع اللمسات الأخيرة لهذه الأعمال، وقد تستغرق هذه الفترة عمراً طويلاً، وبعد ذلك يلقون بما يعملون إلى النار، أو إلى الناس... فالنار والناس كلاهما جحيم يحرق عمل الفنان!

وأبادر فأسجل أننى لا أنشر آثارى فى كتاب خوفاً عليها من الإحتراق، فليس فيها ما أخشى أن تحرقه النار، أو يحرقه الناس!

وشئ ثالث أغرانى بالتأنى فى إصدار الكتب، فقد تأثرت بأستاذ عظيم هو أحمد لطفى السيد، وطالعت آثاره التى ترجمها عن أرسطو، واستمعت إليه محدثاً فى كل فن، وظفرت منه بأحاديث نشرتها فى الصحف، وليس للطفى السيد كتاب واحد من تأليفه إلا بضع مقالات جمعها تلميذه الأستاذ إسماعيل مظهر.

إن الكتاب مسئولية لا يقوى على تحملها إلا قادر عليها، أو جاهل بها، وأنا حتى هذه اللحظة لا أقوى عليها، ولا أجهلها!...

الحياة... أوهام لا تنتهى

فى أحيان كثيرة، يخطر لى أن حياتنا ليست إلا وهماً... وأن ما فيها من كائنات حية، وحركة وامتداد زمنى، وأبعاد، ومسافات ودوران للأرض ما هو إلا هواجس، أو كابوس، أو أضغاث أحلام!

وهذا الخاطر يسيطر على نفسى كلما أصابنى مرض، أو فقدت صديقاً... فقدته ميتاً، أو حيّاً...!

وحياتى مشحونة دائماً بنوبات المرض، وعدد الأصدقاء الذين فقدتهم موتى، أقل من عدد الأصدقاء الذين أفقدهم وهم أحياء.

وكم أتساءل فى مرارة: ما هذه الحياة التى لا أعرف كيف بدأت، ولا لماذا بدأت... ثم أراها وهى تنتهى، دون أن أدرك لماذا تنتهى؟

ونهاية الحياة بالنسبة لى ليست أن أموت، ولكن أن تختنق أحلامى، ومشاعرى وتتعقب الخيبة آمالى... فأرى أن مشاعر الحب، والخير، والوفاء التى ينبض بها قلبى، وتتجه فى فرحة ونشوة إلى كل الناس، قد تحولت عند بعض الناس إلى صخب من الشر، والحقد والكراهية يمزق أعصابى، ويضغط دمى، ويشيع فى نفسى قلقاً، وخوفاً، وكآبة لا تعترينى إلا عندما أسمع صفارة إنذار بغارة جوية، أو نعيب بومة أو اللحن المميز للبرنامج الإذاعى، «خمسة فرفشة»!

وفى الساعات القليلة التى أستريح فيها من شدة مرضى، وحدة الغدر. تبدو لى الحياة أجل من أن يشوهها الحقد، والجحود، وأقوى من أن ينال منها شئ... فكل شئ مسخر لبقائها... الموت نفسه فى خدمتها،

فهو عندما يقبض روحاً إنما يفسح المجال لخلق روح أكثر جدة، وأقوى حيوية... إن فناء ناس، وخلق ناس آخرين يجدد خلايا الحياة، وينشط غددها، وينظم دورتها الدموية، ويجعلها دائماً فى ريعان الشباب.

وأمس زارنى صديق يعانى ما أعانيه من هواجس، إذا ما حزنت، أو انتابنى مرض، وعندما زارنى كنت أعيش فى جو من الرضا، والتفاؤل والطمأنينة، وأخذت أبدد أوهامه ومخاوفه بتجاربى فى الحياة وهى تجارب تجمع بين الهزيمة والنصر، واليأس والأمل، والدمعة والابتسامة...

قال لى بسبرة شاكيه إن زميله فى العمل دس له عند مدير المكتب

فسألته: وماذا جرى؟ فقال: لا شئ... فقد عرف المدير الحقيقة وأثنى على كفاءتى ونزاهتى، وأقصى عنه الموظف الدساس...

ـ ولماذا أنت حزين؟ ألا تكفيك هذه النتيجة؟

قال: أؤكد لك أنى تألمت لما أصاب زميلى من عقاب، ولما أصابه من انتكاس فى أخلاقه وعواطفه. وعجبت كيف يصنع معى هذا وهو صديق منذ عهد الدراسة. ولقد ساعدته فى عمله، ووقفت إلى جانبه فى أزمات عصيبة

واستطرد يقول:

أليس عجيباً أن تحسن إلى الناس، فيسيئوا إليك.

قلت له: لا تظلم الناس فهم ليسوا جميعاً مثل زميلك، إن بينهم من يغلب عليهم الخير فيمنحك الحب والود والغفران، وبينهم من يغلب عليه الشر فهو يحقد عليك لكل سبب، وبدون سبب، إذا كان ضعيفاً ولم تعطف عليه كما يريد، حقد عليك... وإذا عطفت عليه كما يشاء وأكثر مما يشاء حقد عليك لأنك قوى، وهو ضعيف.

وقد علمتنى التجارب أن أكون دائماً مع المظلوم، والذكى، وصاحب

الموهبة، يستوى فى ذلك من تنطوى روحه على الخبث ومن تنطوى روحه على الطيبة... ولكى أتفادى أذى الجانحين إلى الشر تعودت أن أكتم عنهم ما أقدمه لهم من خير حتى لا يتعقبونى بحقدهم... أعرف واحداً من الناس أنقذته من المحنة أكثر من مرة... وعرف من غيرى أنى وقفت معه فى ثلاث مناسبات، فشكر لى موقفى منه، وأخجلنى بعباراته المهذبة، ورنة صوته الحزين، وإشاراته المستكينة، ونظراته التى تنبض بالحنان والدموع، وقد رأى أن يوقع بينى وبين زملائى وبينى وبين رؤسائى فى العمل، وكنت شاباً صغيراً، ولكنى لم أكن أحفل به وبغتة نهشنى وعضنى، فلم أحقد عليه، وقلت لعله ظن أنه صار صاحب أظفار وأنياب، وأراد أن يجرب قدرته على النهش والعض فجربها فى الرجل الذى يقف إلى جواره.

وقال لى أصدقائى: لماذا لا تصارحه بأنك منعت عنه الأذى عشر مرات فى سنة واحدة، مع أنه لم يكن يوماً ما صديقاً لك؟.

وقلت لأصدقائى: إذا كان قد نهشنى وعضنى بعد ما عرف أنى وقفت معه ثلاث مرات فقط، فماذا عساه يصنع بى إذا عرف أنى وقفت معه عشر مرات؟ إنه فى هذه الحالة لن يكتفى بنهشى وعضى، ولكنه سيحاول قتلى.

وشكا له صديق من أن زوجته أم أولاده تركته، وانفصلت عنه، ونازعته أمام المحاكم، وانتهى النزاع بالطلاق...

وسألته: هل كنت تحبها؟ فقال: ومازلت أحبها.

قلت: إن الطلاق، مثل الزواج، مثل الموت، قدر لا حيلة لنا فيه... وأنت على أية حال أحسن حظاً من فلان... فقد ضحى بثروته ومواهبه وأعماله الناجحة فى سبيل زوجته، كانت مريضة إلى حد اليأس من الشفاء، أو تخفيف ضربات الألم، فطاف بها بلاد العالم، ودخل معها أكبر المستشفيات،

واقتضاه مرضها المخيف أن يسهر على راحتها إذا نامت، وأن يسهر معها إذا أرقت، وكان يشعر بآلامها دون أن يتناول ما تتناوله من الأدوية المسكنة للألم... وبعد خمس سنوات من العذاب نجت من المرض بمعجزة، وعادت معه إلى بيته، ولكنها لم تعش فى البيت، وعاشت فى بيت آخر، مع شخص آخر، فطلقها ومازال حتى هذه اللحظة يتلوى قلبه من الحزن، واللوعة والذهول!

وهدأ صديقى واسترد إيمانه بالإنسانية والإنسان... وقال إذا كان الجحود يحض على الكفر، فالوفاء يدفع إلى الإيمان، والحياة فيها جحود وفيها وفاء، فلماذا نرضخ للجحود ونكفر بالحياة، ولماذا لا يستهوينا الوفاء ونؤمن بالحياة؟

وسألته: كيف حال صحتك الآن؟ فقال: حالتى الصحية طيبة جداً.

ألم تعد تشكو من الانقباض والأرق ووجع الظهر والصدر؟

قال الصدق: لقد زالت هذه الأعراض من يوم أن تحدثت مع الدكتور «ميم» فى التليفون... والفضل لك... فقد أعطيتنى رقم البيت الذى كان يعود فيه أحد مرضاه... ولما شرحت له حالتى طمأننى، ونصحنى بأن أستمر فى تناول الدواء الذى وصفه لى من قبل! فضحكت فى وجه صديقى بصورة غير عادية، وسألنى: لماذا تضحك هكذا؟ وكتمت ضحكى، ونقلت الحديث إلى موضوع آخر...

وعندما يقرأ صديقى هذه العبارات سيعلم لماذا ضحكت؟...

كان صديقى يشكو من آلام فى ظهره وصدره، وتوهم أنه مريض بالقلب، فدخل المستشفى، وأجرى عدة فحوص وتحليلات وأشعة، وزار عدداً كبيراً من الأطباء، فطمأنوه على حالته، ولكنه لم يطمئن. وقال لى

إنه يريد أن يعرض نفسه على الدكتور «ميم» بالذات... وأنا أعلم أن الوصول إلى الدكتور «ميم» يحتاج إلى أن يستخدم المريض صاروخاً يخترق به فضاء الأيام والأسابيع! واستطعنا أن نجد هذا الصاروخ ووصلنا إلى الدكتور «ميم» وقام بدراسة الصديق المريض. ودراسة تقارير الأطباء والمعامل، وأكد أن صديقنا لا يحتاج إلا إلى تناول ثلاث حبات من «فيتامين ب» كل يوم.

واطمأن الصديق، ومارس حياته بتفاؤل وثقة، ومنذ أسبوع اتصل بى ليلاً، بواسطة تليفون الجريدة التى أعمل بها، وسألنى أين الدكتور «ميم» وقلت له إن العقبات التى وجدناها فى العثور عليه أول مرة، تجعلنى أيأس من البحث عنه مرة أخرى!

قال: ولكنى مريض... عندى أرق شديد، وإذا لم يرنى الدكتور «ميم» هذه الليلة، فلن أعيش حتى أرى الصباح!

وقلت له إن الدكتور «ميم» يزور الآن أحد المرضى، ويمكنك الاتصال به تليفونياً فى هذا الرقم، وأعطيته رقم تليفونى الخاص.

وبعد دقيقتين دق جرس تليفونى وجرى الحديث بين صديقى وبينى على النحو الآتى:

الصديق: الدكتور «ميم» موجود؟

ـ لحظة من فضلك؟

ثم ارتفع صوتى بنبرة مختلفة عن نبرتى الطبيعية، وقلت: أنا الدكتور «ميم».

الصديق. لا تؤاخذنى... إذا كنت قد طلبتك فى وقت غير مناسب، وظرف غير مناسب...

ـ العفو... أنت مواظب على تناول «فيتامين ب».

الصديق: نعم... لكنى شعرت الليلة بأرق، مصحوب بألم خفيف فى الظهر.

اشرب فنجاناً من النعناع الساخن. واستمر فى تناول فيتامين ب وبعد أسبوع اتصل بى لأراك فى العيادة.

الصديق: متشكر يا دكتور.

وفى اليوم التالى اتصلت بصديقى وسألته: ماذا صنع أمس، فحكى لى ما دار بينه وبين الدكتور «ميم»... وقال: إن هذا الرجل ساحر... المكالمة التليفونية معه أراحت أعصابى وهيأت لى نوماً عميقاً مريحاً.

ولما سألته أمس، متى تتصل بالدكتور «ميم»؟

قال: ليس الآن فأنا بخير والحمد لله!

ما أشق هؤلاء الذين يمرضون بالوهم فيلجأون إلى الطبيب والدواء... مع أن مرض الوهم لا علاج له إلا الوهم!

وأنا واحد من هؤلاء الأشقياء!

الحق... والحياة!

قال لى طبيبى إن نسبة السكر فى دمى قد ارتفعت بصورة تدعونى إلى الحيطة والحذر... وأخذ يشرح تقرير طبيب التحليل، ويضع خطوطاً تحت الفقرات الهامة التى تضمنها التقرير، ثم أعطانى قائمة بالأدوية التى يجب أن أستعملها حتى أقاوم خطر ارتفاع نسبة السكر... وبدا من نبرات صوته أنه لا يصف لى علاجاً ولكن يرثينى بكلمة تأبين... وأحسست وهو يودعنى إلى باب غرفته أنه لا يودع صديقاً ولكن يشيع جنازة!

وكنت منذ دخل السكر حياتى، أفزع إذا ما ارتفعت نسبة السكر وأظل أوجه إلى طبيبى أسئلة تدل على خوفى من الموت، وتشبثى بالحياة.

فى هذه المرة لم أفزع، ولم أسأل الطبيب عما إذا كان هناك خطر على حياتى؟

وأخذت منه قائمة الأدوية الجديدة، وأحسست وأنا أضعها فى جيبى أن رصيدى من الأدوية قد تضخم... وهكذا أصبح لى رصيدان بلغا الضخامة والجسامة أقصى الحدود... رصيدى من الأدوية، ورصيدى من الديون!

وذهبت إلى البيت، وأخلدت إلى نفسى أفكر فيما ينتظرنى، أو أنتظره... بعدما ساءت حالتى الصحية؟ وما الذى ننتظره أو ينتظرنا، إذا مرضنا إلا الموت...

وأعترف بأنه حدث أكثر من مرة أن مرضاً خطيراً عرضنى لموت محقق، وكنت كلما نجوت بحياتى أفرح وأنتشى، فقد كان شعورى برهبة

الموت يفتت قلبى، ويسحق أعصابى ويثير الرعب فى دمائى وعروقى... كان الموت هو عدوى الوحيد الذى أخشى لقاءه أو لعل هذا هو إحساس الناس جميعاً ولا أدرى لماذا؟ فإنهم مثلى لا يعرفون ما هى الحياة؟ ولا يعرفون ما هو الموت؟ هل الموت منفصل عن الحياة؟ لماذا إذن نتهيبه ونجفل منه، فى حين نقبل على الحياة ونطمئن إليها؟ هل هو نهاية شاذة للأحياء؟ كيف يكون ذلك وكل من سبقنا من الأحياء انتهوا بالموت؟ هل هو نهاية طبيعية لكل ما هو حى؟ إنه كذلك فعلاً... فكيف نحاول أن نفر من نهايتنا وإلى أين الفرار؟

ومع ذلك فما أكثر ما أحببت الحياة! وما أكثر ما كرهت الموت، دون أن أفهم لماذا أحب، أو لماذا أكره؟ كل ما أدركه الآن من أسباب حرصى على أن أحيا، هو أنه كان لى فى الحياة ما أريده وكان عندى للحياة ما أعطيه!

وتناولت الأدوية التى وصفها لى الطبيب... الحبوب والسوائل والحقن وسأظل أتناولها لا خوفاً من الموت، ولكن خوفاً من الانهيار تحت وطأة المرض... فلم يعد يعنينى أن أحيا، ولم يعد يهمنى أن أموت، وإنما الذى يعنينى ويهمنى هو أن أحيا وأنا فى صحوة الفكر والمشاعر، والجسد. وأن أموت ورأسى ملئ بالأفكار والظنون وقلبى نابض بالإيمان والحب وجسدى ينتفض ويتحرك، ويمشى على قدميه!!

* * *

أيتها الذكريات... ماذا تريدين منى؟

عشت اليوم فى جو العيد، كل ما حولى فى البيت، والمكتب، والشارع، يستعد لاستقبال عيد الأضحى غداً.

المحررون والموظفون والعمال يتجمعون فى مكتب الصراف ليتسلموا المكافآت وجزءاً من المرتبات، بينهم من تعلو فمه الابتسامة، وبينهم من لا يبتسم، ربما لأنه يدخر ابتسامته ليوم العيد! ربما لأنه لا يعرف كيف يواجه العيد بهذا القدر الذى تسلمه من المكافأة والمرتب!

سكان البيت حبسوا الخراف فى المطابخ وغرف الغسيل، والردهات، وربطوا رقبة كل خروف بحبل يتيح له أن يتحرك دون أن يمشى، ويتيح له أيضاً أن يعبر عن ألمه بهذا الصوت (ماء... ماء) وإذا صاح خروف فى أية شقة بهذه الصيحة: (ماء) صاحت معه بقية الخرفان، فى كل الشقق، وتحولت الصيحات... إلى احتجاج جماعى توجهه الحملان الوديعة إلى من أسروها، وأعدوها، لكى تكون ضحية العيد!

وقد أخرج السكان التراب من شققهم بالمنافض والمكانس وخراطيم المياه، وألقوا بالأتربة فوق عتبات السلالم الخلفية، وأخذ البوابون ينقلون هذه الأتربة إلى صناديق القمامة، تمهيداً لتسليمها إلى عمال النظافة...

وفى الشارع حركة غير عادية، صبية الكوائين، يروحون ويجيئون بسرعة ونشاط، عربات التاكسى والعربات الخاصة، تقف عند أبواب البيوت والعمارات وتنزل منها لفافات تحمل أسماء أشهر محال الحلوى، والأقمشة، والخياطين. والعجلات التى تطوف البيوت باللبن والخبز كل

يوم، طافت اليوم أكثر من مرة لتزود السكان بحاجاتهم فى إجازة العيد!

ولقد اعتدت هذا الجو فى الأعياد الماضية، وكنت أطيقه. ولكن فى هذه السنة ضقت به. وأحسست رغبة شديدة فى الهرب من مواجهة العيد هنا فى بيتى... ولكن إلى أين أذهب؟ إلى الاسكندرية ففيها البحر الواسع الكبير الذى تستطيع مشاعرى الجريحة أن تجد فيه ما يضمد جراحها!

ولكن الدم لا يسيل من مشاعرى وحدها، إنه يسيل من ذكرياتى أيضاً... ولا أعرف إلى متى تبقى هذه الذكريات، ولا أعرف ماذا تريده منى؟

ما أكثر ما عرفته ونسيته. إلا ذكرياتى، فأنا لا أستطيع أن أنساها، وهى لا تريد أن تنسانى... ويالها من ذكريات يختلط فيها الرضا والغضب، والذكاء والغباوة، والاطمئنان والقلق، والاستقرار والضياع.

بعض الذين أذكرهم تركوا الحياة، ولكنهم لم يخرجوا من حياتى، وبعض الذين أذكرهم دخلوا حياتى، وخرجوا منها وهم أحياء، ومازلت أبحث عنهم بخيالى، بأوهامى، بنبض قلبى، بخلجات نفسى... أراهم وهم يهربون من عاطفتى فى طيارة أو صاروخ، فألهث، وراءهم بوفائى وحبى! ويا له من إنسان ساذج هذا الذى يحاول أن يلحق الطيارة أو الصاروخ بالوفاء والحب! ليته يعلم أن الوفاء ساق مشلولة، والحب جناح كسير!

صخب وهدوء

بغتة وفى وقت واحد، أدرت الراديو والتيفزيون، ومسجل الأشرطة والفونوجراف. وتحدثت فى التليفون... أريد أن أثير ضجة، وصخباً، وزعيقاً لعلنى أنسى هواجسى وتأملاتى، أو أفقد ذاكرتى!

ولكنى لم أفد من ذلك إلا الشعور بوجع رأسى، وارتديت ملابسى واتجهت إلى المقابر، كما اعتدت فى كل عيد. وهناك وجدت الهدوء المهيب الرهيب ووقفت عند قبر لا أعرفه، وتمثلت فيه كل أهلى وأحبابى الذين ذهبوا إلى غير رجعة، رأيتهم بملابسهم، بسحناتهم بملامحهم بمزاياهم النفسية والعقلية. كدت أسمع أصواتهم من شدة شعورى بهم.

وبدأت أتحدث إليهم... وفجأة أدركت أن فمى لا يتكلم. وأن عينى هى التى تتكلم... فلم تنطلق منى كلمة، ولكن انطلقت أنات ودموع!

فيم أنينى وبكائى؟ هل يرد الأنين غائباً ليس لغيبته إياب.؟ هل يعيد البكاء يوماً من سنة، أو دقيقة من ساعة؟

أم ترانى لا أئن شوقاً إليهم، ولا تدمع عيناى حزناً عليهم. وإنما أنا أتأوه من ألمى، وأبكى على نفسى؟

وما الذى يؤلمنى؟ إن أقسى ما أعانيه هو المرض، وأين الإنسان الذى لا يعانى علة؟ وعلام نخشى المرض مادمنا نستطيع مقاومته بالدواء؟ هل نخاف أن ينتهى بنا إلى الموت؟ وهل المرضى وحدهم هم الذين يموتون؟

ما الذى يؤلمنى، وأنا أحيا كما أريد. أعمل، وأقرأ، وأكتب، وأفكر،

وأعيش عصرى بكل ما فيه من حضارة، وعلم، وفن، وجمال؟

إن الحياة فى نطاقها المادى المحسوس لا تؤلم الأحياء. وإنما تؤلمنا حياتنا عندما يجتاحها تيار الانفعال بالحب، والخير والوفاء، والذكريات؟ إن انفعالاتى هى سر ألمى!

وإذا كانت ذكرياتنا عن أحبابنا الموتى سوطاً يلسع ظهورنا، فإن ذكرياتنا عن أحبابنا من الأحياء خنجر يشق قلوبنا، وحبل يشنق رقابنا.

إننى أكتب هذه الكلمات وقد نفضت قدمى من صحراء الإمام، وسرت فى الطريق الصحراوى إلى الأسكندرية... إن الصحراء تغرينى بالتأمل، سواء كانت طريقاً أو مقبرة... وبعد ساعتين سأكون فى الأسكندرية. حيث البحر العميق العملاق... وكم ألهمنى هذا البحر أفكاراً، وأشعاراً، وتعبيرات صادقة... وكم تخلى عنى فلم يلهمنى شيئاً إلا الوحشة والكآبة!

ليتنى أستطيع أن أكسب صداقته لحظة واحدة... لحظة أغرق فيها ذكرياتى عمن يعيشون معى وليسوا معى! الموتى الذين سأعود إليهم يوماً، والأحياء الذين لن أعود إليهم أبداً.

كيف تعيش حياتك..؟

فى أحيان كثيرة يخيل لى أنى لا أعيش حياتى، ولكنى أموتها... الأيام تمر بى، فتأخذ من عمرى دون أن تعطينى شيئاً أى شئ... انفعالاً، شعوراً، تجربة!؟

وفى أحيان أخرى يخيل لى أنى أعيش حياتى بعقلى، وقلبى، وكل خلجات نفسى... أحس أننى أؤدى دوراً فى الحياة ومع الحياة... دورى فى الحياة هو أن أعمل وأتأمل وأناضل فى سبيل فكرة أو عاطفة... ودورى مع الحياة هو أن أستوعب ما فيها من خير وشر، وإيمان وشك، واستقامة واعوجاج... أقاوم النزوة، وأستسلم للجمال! وكم توهمت وأنا أسهر الليل أن الغد لن يصحو إلا إذا أيقظته بآهاتى، أو ضحكاتى، أو دراساتى... وهل ليالى التى أسهرها إلا آهة أو ضحكة، أو دراسة؟

وفى لحظات الشعور بالثقة والصمود أستقبل يومى الجديد كما أستقبل أستاذاً جاء يمنحنى العلم والموعظة... فأحتفى به، وأقدم له فهمى، وانتباهى!

وكم أتصور الأيام خيلاً، تملأ حظيرة عمرى، فأقصى منها المشوه والهزيل، وأنتقى الجياد الأصيلة، فأمتطيها، وأنتقل بها بين اليوم والغد، فى قوة، واعتزاز، وخيلاء!

وأنا حريص على أن أؤدى دورى فى الحياة. قد يكون هذا الدور فوق المسرح، دور بطل أو دور كومبارس. وقد يكون فى مقاعد المتفرجين. فى المقاعد الأمامية، أو فى أعلى التياترو! وإنى لتنتابنى الرغبة فى أن يكون

دورى أكبر، ولكن لا أرغب ولا أفكر فى أن أتشبث بالبقاء على المسرح أو فى الصالة بعد إسدال الستار...

ولهذا فأنا لا أهاب الموت لأنه خاتمة الرواية... ولكنى أهاب المرض لأنه يعوقنى عن تأدية دورى!

والحياة عندى ليست فقط جسراً نعبره إلى حياة أخرى، وإنما هى طريق نقطعه... طريق له بداية نود أن نعرفها، وله نهاية لن نصل إلى مداها... ولا يعنينى أن أقع وأنا سائر فى الطريق، وإنما الذى يعنينى أن أسير فى الطريق، ولوبضع خطوات!

وما أكثر الذين وقفوا فى طريق الحياة... لم يمشوا، ولم يقعدوا... لم يفتحوا أعينهم على ضوء، ولم يلتفتوا بآذانهم إلى نغمة، وهؤلاء اصطلحنا على تسميتهم أتقياء ورعين مأواهم الجنة... وما أظن أن لهم هذا المأوى أبداً! فالله الذى خلق الدنيا وأودع فيها فنه العظيم لن يفتح جنته لمن تجاهلوا دنياه!

إن الحياة ليست جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين. وليست جحيماً يشوى جلودنا ويكوينا. وإنما هى ظل وشمس... والإنسان الحى ليس من يحتمى دائماً بالظل، وليس من يعيش دائماً فى وهج الشمس، وإنما هو من يمارس الظل والشمس معاً؟

فكيف تعيش أنت حياتك؟

عقليات ترتدى «الشورت»... و«المايوه»!

مـــا من مـــرة ذهبت إلى الشـــاطئ إلا تمنيت أن أرتدى البنطلون «الشورت» أو «المايوه» وأتمرغ على الرمال، وأستقبل أشعة الشمس، وأدير لها ظهرى، وأقذف كرة، وأجرى خلف بالون، وأغوص فى قاع البحر، وأطفو فوق سطح الماء، وأرتطم بالموج وأمتطى القارب العائم!

ولكن ما من مرة أدركت ما تمنيت. صحيح أنى لبست المايوه، وسبحت فى البحر، ولكن ذلك كان منذ ربع قرن، ثم حدث أن غرق ابن عمى أمام عينى فى شاطئ سيدى بشر، فظللت زهاء عشر سنوات أجفل من رؤية البحر، كنت أرى الماء فأدوخ، وأقترب من الشاطئ فأحس أن قدمى تغوصان فى الرمال، وأن الأمواج تضغط رقبتى بقبضة من حديد... من هذا التاريخ اكتفيت من الشاطئ بالمشى، والجلوس، واكتفيت من البحر بالنظر إلى موجه، والسباحة فى هوائه!

أما البنطلون الشورت فحتى هذه اللحظة لم أجرؤ على ارتدائه ولو على سبيل التجربة... وكيف أجرب الخوف والفزع لى وللآخرين... فأنا فى حجم الفيل، وإنه شئ يخيف، ويفزع منظر الفيل... وهو يرتدى البنطلون القصير أمام الناس أو وحده، وفى الطريق العام.

الناس يستريحون فى المصيف لأنهم يحررون أجسادهم من القيود، ويرتدون أخف الثياب، وأقصرها. ولا يشغلون أنفسهم بمشكلات الحياة.

وأنا أستريح فى المصيف، برغم أنى لا أخفف ثيابى، ولا أتخلص من فضول الكرافتة، والجورب، والحذاء المربوط... فلماذا؟ هل الجو وحده

يكفى للراحة أم ترانى أستعيض عن تحرير جسمى من قيود اللبس، بتحرير عقلى ونفسى من قيود التفكير فى مشاكلى وهمومى؟ ولكنى أقرأ وأفكر فى المصيف، أضعاف ما أقرأ أو أفكر فى أى مكان آخر.

ولقد أحصيت عدد صفحات الكتب التى قرأتها خلال الأسبوعين الماضيين فوجدتها خمسة آلاف صفحة! وأحصيت عدد المشاكل التى واجهتها فوجدتها عشرين مشكلة.

فما هو إذن سر راحتى وهدوئى وشعورى بالخفة والانطلاق!

لقد حاولت أن أعرف السر فى نفسى فلم أستطع، فرحت أبحث عنه فى نفوس أخرى... ثلاثة أشخاص تعودت أن أراهم فى الأسكندرية كل صيف... وهم جميعاً يرتدون الملابس الشتوية كاملة، وفيهم من يحتفظ بصديرى فوق القميص، و«بالجيتر» فوق الحذاء... أستاذنا لطفى السيد، والدكتور سليمان عزمى، وممرن الخيول سيمون... وكلهم تجاوزوا الثمانين... وفى كل عام تتجدد أعمارهم، وتكتسب فتوة، ونشاطاً، ونضارة!.

إنهم لا يرتدون «الشورت»، ولا «المايوه»، ولا يسبحون فى الماء، ولا يمشون على رمال الشاطى بأقدام عارية... إن عقولهم ونفوسهم وقلوبهم هى التى ترتدى «الشورت» و«المايوه»... إنهم يحررونها من التفكير العميق، ويكتفون بالنظرة العابرة، والمشاهدة السريعة... فأستاذنا لطفى السيد معلم الجيل، وفيلسوفه، صاحب العقلية التقدمية، والفكر الواعى المدرك يريح رأسه ـ خلال فترة الصيف ـ من الدراسات الثقيلة ويكتفى بقراءة الجرائد والمجلات العربية والفرنسية. وهو يجلس فى بهو الفندق يتأمل الرائحين والغادين. ثم يستقل عربته إلى بلاج المنتزه، ويعود إلى الفندق عند الظهر ليتناول طعام الغداء، ويأوى إلى غرفته حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ثم ينزل إلى الفندق ليستقبل زائريه ويوزع عليهم ابتسامات من

وحى يومه، وأفكاراً من وحى أمسه! ثم يخلو بصديقه الدكتور سليمان عزمى ويلعبان الطاولة ساعة أو ساعتين!

والدكتور سليمان عزمى يقضى يومه مع أسرته الصغيرة، ويختلس من الساعات الأربع والعشرين ساعتين يقضيهما مع صديقه لطفى السيد.

وسليمان عزمى أستاذ الطب الباطنى، وقد تخصص فى مرض القلب، وهو نفسه يعانى هذا المرض من نحو خمسة وثلاثين عاماً!

وفى أثناء أشهر الصيف يغلق عيادته، ولا يعود لمرضى إلا فى الحالات المستعصية، وإذا رأيته اليوم فى نشاطه وحيويته أحسست أنه شاب فى الثمانين!

والممرن سيمون هو المريض الوحيد الذى يعوده الدكتور سليمان عزمى فى الاسكندرية فهما ينزلان فى فندق واحد، وكلما انتابت سيمون أزمة قلبية استدعى له الفندق أقرب طبيب... وسليمان عزمى هو أقرب طبيب من غرفة سيمون لأنه يحتل الغرفة المجاورة!

وقصة سيمون تدعو إلى الدهشة والعجب... فهو قد أشرف على التسعين ولا يزال إلى الآن يتولى تدريب خيول السباق، ويذهب إلى الإسطبل كل يوم مرتين، ليتولى تضمير الخيل، وتمرينها، وعلاجها، وطريقة معيشتها...

وقد أصيب منذ عامين بمرض من أمراض القلب، وأجمع العلم والطب على أن أيامه معدودات، وذهبوا به إلى المستشفى، ولما طالت إقامته هناك ارتدى ملابسه وغادر المستشفى إلى الفندق، وهاج أخوه الذى يصغره بأربعين عاماً وقال له: حرام عليك تترك المستشفى وأنت مريض مرض الموت!

وفى كل صيف كنت أرى سيمون ومعه أخيه الصغير... ووجدت فى هذا الصيف سيمون وحده... فقد مات أخوه!

وكان الطبيب قد منع سيمون من أكل البطيخ، واستعمال الملح، وتناول الشاى، ولكن سيمون لم يخضع لتعليمات الطبيب. وظل يأكل البطيخ، ويستعمل الملح، ويتناول الشاى بإسراف شديد... وغضب «ا نمورجى» الذى يتولى خدمة سيمون وقال له: أنا لا أستطيع الاستمرار فى خدمتك مادمت لا تتبع تعليمات الطبيب... ويقول سيمون: لقد عشت تسعين عاماً على البطيخ والملح والشاى... ووجدت الذين لم يأكلوا البطيخ، ولم يستعملوا الملح، ولم يشربوا الشاى قد ماتوا فى ريعان الشباب... فكيف أكذب الواقع وأصدق الطب!

وفى أحد الأيام تأخر «التمورجى» عن الحضور فى موعده المعتاد... وأقسم سيمون أن يضربه بالعصا، ولكن سيمون لم يبر بقسمه فقد مات «التمورجى»!

وسيمون يعيش بقوة الإرادة، والعناد، وقد كافح فى حياته حتى أصبح شيخ ممرنى الخيول. وفى إسطبلاته تربت خيول سلطان والشريعى وأحمد ماهر وحفنى محمود وشعراوى وعبود وعشرات من خيول الوجهاء وأصحاب الملايين من أجانب ومصريين، وهو يحتفظ بذكريات، عن جميع الوزراء وأصحاب السلطان خلال سبعين سنة مضت.

وسيمون قصير القامة، ضامر الجسم، عصبى، عنيد، يتوكأ على عصا خيزران وقد أنهكته الأيام حتى لم يبق منه إلا عناده، وعصا الخيزران!

ويقول أصدقاء سيمون إن عزرائيل زاره خلال العامين الماضيين مرتين... فكان يهش عزرائيل بعصاه فيتقهقر عزرائيل احتراماً لشيخوخة سيمون، ولكن عزرائيل لا ينبغى أن يزور أحداً ويرجع ويده فارغة... ففى الزيارة الأولى ترك سيمون وأخذ معه شقيق سيمون... وفى المرة الثانية

ترك سيمون وأخذ معه «تمورجى» سيمون!

إن سيمون مثل سليمان عزمى، مثل لطفى السيد، لم يرتد جسمه الشورت، ولا المايوه فى أثناء الصيف... ولكن ثلاثتهم كانوا يحررون رؤوسهم وقلوبهم من القيود... ويجعلونها تلبس «الشورت» و«المايوه»...

obeikan.com

نحن نتعلم... لكى نحيا!

ما الحياة بالنسبة إلى الإنسان؟ هل هى أن يتنفس برئته، ويتحرك بجسده، ويأكل وينام؟ لو أن حياة الإنسان هكذا، فما الذى يميزه من الحيوان الذى يتصرف بغرائزه، ولا يقوى على أن يهذب هذه الغرائز أو يفلت من قيودها؟

لا شئ. ولكن الواقع أن الفرق بين الحياة الإنسانية، والحياة الحيوانية، واضح وعميق فالحيوان يتنفس بالرئة، ونحن نتنفس بالرئه وبالذهن. والحيوان يتحرك بجسده ونحن نرى بأعيننا ومشاعرنا وأفكارنا. الحيوان يرى بعينيه. ونحن نرى بأعيننا ومشاعرنا وأفكارنا. الحيوان تمر به التجارب والأحداث فلا يهتم بها، ولا يستفيد منها، ونحن ندخل التجربة ونفيد منها، ونواجه الأحداث ونتأثر بها، ونؤثر فيها... الحيوان يستسلم للغريزة، ونحن ندرس غرائزنا ونقدر على أن ننتقى منها ما هو خير، ونتفادى ما هو شر. الحيوان يعبر الحياة فلا يضيف إليها شيئاً، ونحن نبنى الحياة، ونطورها ونسمو بها...

الجمال... أقوى من الحب!

والجمال... ياله من قوة طاغية؟ ماذا يريد منى؟ وإلى متى يظل يريد منى؟؟

لو أردنا أن نحصى كل ما قيل عن الحب والجمال، لملأنا آلافاً من المجلدات، وبرغم ذلك مازلنا نعانى الحيرة فى مفهوم الحب والجمال، ونتساءل ما هما، وهل لهما حقيقة محددة، أو أنهما شعور طليق ليس له حدود؟

والفرق بين الحقيقة والشعور، أن الحقيقة يمكن التعبير عنها بسهولة. وإن كان الحصول عليها صعباً، أو مستحيلاً. وعلى عكس ذلك الشعور: الانفعال به سهل، والتعبير عنه شاق، وأكاد أومن بأن الجمال والحب شعور ذاتى، فنحن نحس الجمال. وننفعل بالحب، دون أن نتجشم ما ينبغى أن نتجشمه للوصول إلى الحقيقة من بحث، ومنطق وإدراك!

ولنتصور إنساناً لا يشعر إلا بعد دراسة، ولا ينفعل بالحب إلا بعدما يستخدم علمه ومنطقه... إن مجرد هذا التصور يثير السخرية حتماً!

الحب شعور لأنه ينبع من داخلنا، والجمال شعور لأنه أيضاً ينبع من داخلنا... فاعترافنا بالجمال لا يتوقف على خضوع ما نراه جميلاً لمقاييس اصطلحنا عليها، وإنما نعترف بجمال الشئ إذا ما انفعلنا به وتجاوبنا معه...

وقد تنجذب إلى ذات، أو جو، أو منظر، يحس غيرك نفوراً من هذه الذات، وهذا الجو، وهذا المظهر!

الجمال إذن مثل الحب ليس صورة عامة خارجية، ولكنه إحساس ذاتى ينبع من نفوسنا.

ولكن هذا استطراد ربما أقصانى عن الخاطر الذى أريد تسجيله فى هذه السطور... وهو خاطر بسيط لا يحتاج إلى كل هذا التعقيد...

منذ عشر سنوات، كنت أقضى إجازتى الصيفية فى أحد الفنادق بمدينة الأسكندرية، واتفقت مع صيدلية قريبة من الفندق على أن ترسل لى «التمورجى» صباح كل يوم، ليحقننى بالأنسولين وكل الفيتامينات اللازمة لمن يعانون مرض السكر.

وكنت أشعر بالراحة والحرية، وأنا أتناول الحقنة فى غرفة النوم، فإن ذلك يهيئ لى أن أستلقى على السرير وأمارس أجمل لعبة رياضية تطيل العمر... وهى لعبة الكسل!

واتصلت بى الصيدلية، وأخبرتنى أن «التمورجى» مريض، وأنه لا يوجد عندها من يتولى مهمته إلا الطبيب الصيدلى، وهو لا يستطيع مغادرة الصيدلية... وحاولت أن أقنع الصيدلى بزيارتى ولكنه رفض... فلم يسعنى إلا أن أذهب إليه لأتناول حقنة تحت الجلد، وحقنه فى العضل... وشعرت بضيق شديد... هل سأرتدى ملابسى الخارجية يومياً وأتوجه إلى الصيدلية، ثم أعود إلى غرفتى وأخلع ملابسى لأستريح، أو أظل خارج الغرفة دون أن أستريح!

ولم أكد أدخل الصيدلية، حتى شعرت بنشوة عميقة... الصيدلى رجل وقور مهذب، ونظام الصيدلية رائق مريح... ولكن هذا لم يكن مبعث نشوتى، لقد أحسست النشوة من الفتاة الجالسة وراء الخزانة، وبجوارها آلة تليفون!... ما جدوى أن أصف عينيها، وقوامها، وابتسامتها... وصوتها...

إن هذه السمات والملامح ربما كانت فى مستوى متواضع للجمال لو أن للجمال مستوى... ربما! ولكنها فتنتنى وأغرتنى بأن أتردد على الصيدلية فى اليوم الواحد عدة مرات... أشترى الدواء، وأعود بعد دقائق

وأسأل عن دواء أعلم أنه غير موجود!... ثم أعود وأشترى كولونيا، أو صابوناً، أو أمواس حلاقة، أو معجون أسنان!

وكان بجوار الصيدلية مقهى صغير. فأخبرت الفتاة أنى سأجلس فى المقهى أنتظر مكالمة تليفونية سيحولها الفندق على الصيدلية... وكنت قد أوصيت عامل تليفون الفندق أن يطلبنى كل نصف ساعة فى رقم تليفون الصيدلية!

وبعد أيام. عاد «التمورجى» إلى العمل، وأراد أن يوافينى فى الفندق كعادته قبل أن يمرض، ولكنى أفهمته أنى مستريح إلى تناول الحقنة فى الصيدلية... وسألنى: أليس فى هذا تعب لك؟ وأجبته بأن الذهاب إلى الصيدلية والعودة منها إلى الفندق يريحنى جداً. ولم يكن فيما قلته كذب أو مبالغة. فإن رؤيتى للفتاة كانت تتيح لى لذة أحلى من لذة الاعتكاف فى غرفتى، والاستلقاء فوق السرير، والاسترخاء على المقعد، والإغراق فى الكسل!

وكان لى فى ذلك الحين قلب يمارس حباً عابثاً... فحررتنى فتاة الصيدلية من حبى... لم أحبها، فقد كان جمالها أقوى من أن أحبها... وكان أقوى من حبى لغيرها!!

الجمال... ياله من قوة طاغية! ماذا يريد منى؟ وإلى متى يظل يريد منى؟؟

الإنسان البدين.. قليل الدين!

عانيت فى هذا الأسبوع أزمة صحية لا عهد لى بها، كنت فى الأزمات السابقة أعرف مرضى، فأقاومه بمختلف الأدوية والعقاقير، أحياناً استشير الطبيب، وأحياناً لا أستشيره...!

فى هذه الأزمة لم أعرف المرض الذى أقاسيه على وجه التحديد، هل هو برد؟ ولكن البرد يقترن عادة بزكام، وسعال وارتفاع فى درجة الحرارة، غير أنى لم أشعر بزكام، أو ارتفاع فى درجة حرارتى، ولم أحس إلا السعال العادى الناشئ من تدخين السجائر بنهم شديد..

هل هو ضغط دم؟ الطبيب أكد لى منذ شهر مضى أن ضغطى طبيعى؟ هل هى حالة من حالات الكبد والمرارة؟ لا أدرى... كل ما أدريه أنى لم أكن أستسيغ طعم الماء أو الأكل أو السجائر، وأن رأسى يئن من الدوار، وأطرافى باردة وجسمى كله منهار!

وذهبت إلى واحد من أطبائى العديدين، وقد اخترت هذا الطبيب بالذات لأنه يميل إلى الأدب، والفن، والفلسفة، وهو متفائل دائما، يجيد الابتسام فى وجوه مرضاه، يستوى فى ذلك المريض المتماثل للشفاء، والمريض المشرف على الموت!

وفحصنى طبيبى، وقرر أنى مصاب بحالة من حالات البرد ساعد على شدتها مرض السكر!

وقلت له: إننى أسير طبقاً للنظام الذى وضعه لى، لكى أقاوم السكر، وصارحته بأنى منذ اتبعت هذا النظام، وهن عظمى، فلا أكاد أتحمل

نسمة باردة، وأصابنى الأرق فلا أستطيع أن أنام إلا بالأقراص المنومة، والحبوب المهدئة للأعصاب!

وضحك الطبيب وقال: إن الهزال هو العلاج الوحيد لمرض السكر.. ولو استطعت أن تخفض وزنك أكثر من ذلك فسوف تبرأ من مرض السكر حتماً!

واعترضت على رأيه هذا بأن بدانتى ليست طارئة، وإنما هى طبيعية، فقد خرجت إلى الدنيا وأنا من الوزن الثقيل، وعشت طفولتى وصباى وشبابى بديناً، وكنت برغم بدانتى إنساناً نشيطاً، أجرى دون أن ألهث وأركب البسكليت، وألعب البلياردو، وأصعد إلى الدور الرابع عشر مرات فى اليوم بأنفاس هادئة ومنتظمة!

وقال الطبيب: إن تكوينك غير طبيعى، ومهمة الطب أن يجعلك إنساناً طبيعياً، حتى لا تتعرض لأمراض أخرى أشد خطراً من مرض السكر، فأصحاب الوزن الثقيل، معرضون أكثر من غيرهم لضغط الدم، وتصلب الشرايين وتضخم الكبد، وكل أمراض القلب..

وذكر أنه قرأ فى إحدى المجلات العلمية، أن بعض رجال الدين فى أوروبا، يرون أن البدانة خطيئة يعاقب عليها الدين!

وأن الإنسان البدين يعد مذنباً، وعاصياً، لأن البدانة تنشأ من الإفراط فى الطعام وقد نهى الدين عن الإفراط فى كل شىء!

وقلت لطبيبى: إن ديننا يدعو إلى ذلك أيضاً، فمن تعاليم الإسلام: «خير الأمور الوسط» و«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» و«جوعوا تصحوا».

وهممت بالانصراف، فقال لى: انتظر حتى أكتب لك «الروشتة».

وقلت له لا حاجه لى بالروشتة لقد عرفت دوائى: لن آكل حتى أجوع، وإذا أكلت لن أشبع.

وقال الطبيب الفيلسوف: لو طبق مرضاى هذه الحكمة لاعتزلت مهنة الطب!

وذهبت إلى البيت ووجدت فى انتظارى صينية بطاطس مدعمة باللحم، وطاجناً من الأرز.. ولعنت الأنانية التى تجعلنى أوثر صحتى على أن يمارس طبيبى مهنته.. لعنت الأنانية والتهمت البطاطس والأرز، حتى أستطيع أن أتردد على الطبيب فى اليوم التالى!

إن التجارب علمتنا أن المرض مثل العمر، سر غامض، وقد عرفت ناساً كانوا يأكلون بنهم ولم يمرضوا، وناساً كانوا يأكلون بحذر وظلوا طول حياتهم مرضى..

ومنذ سنوات أصيب أحد أصدقائى بقرحة فى المعدة، وذهب إلى أوروبا، وعولج من مرضه، وعاد إلينا صحيحاً معافى، وذات يوم صدمته سيارة ومات!

ليست هذه الخواطر دعوة إلى الناس بأن يخرجوا على تعاليم الطب، وإنما هى برقية عزاء أبعثها إلى نفسى.. بعد أن أكلت صينية البطاطس وطاجن الأرز!

عقلى.. وصحتى!

ما أكثر الكلمات التى وعاها ذهنى وأنا صغير، فبهرتنى من هذه الكلمات حكمة تقول: «العقل السليم فى الجسم السليم».

وكنت أظن أننى سأظل مبهوراً بها طول عمرى. فالأذهان فى مرحلة الطفولة، مثل الأرض، تحتفظ بالبذور المغروسة فيها. البذرة القوية تنمو، والبذرة الضعيفة تذوب فى الأرض وتصبح جزءاً من الأرض!

ولكن سوء حظى أغرانى بأن أناقش الحكمة القديمة، وأدخل معها فى تجربة، وانتهت المناقشة والتجربة بأن اقتلعت الحكمة من رأسى، فقد اتضح لى أن سلامة جسمى تقتضينى أن أقيد عقلى فيصبح عاجزاً عن أن يفكر، أو يتخيل. وما جدوى العقل إذا عجز عن التفكير والخيال!

إن جسمى لكى يكون سليماً من المرض، يجب أن أتبع فى حياتى نظاماً صارماً، فأمتنع عن الطعام الذى أحبه، ولا أتناول من الأطعمة إلا ما لا أطيقه كاللحم المسلوق، والخضر الخالية من الملح، والخبز الأسمر الجاف.. الخيار فاكهة.. واللبن الزبادى حلوى!

ويجب أيضاً أن أقلع عن السهر، وأنام مبكراً، وألغى الليل من يومى ولا أعترف إلا بالنهار..

ولا ينبغى أن أدخن سيجارة، أو أشرب فنجان قهوة، حتى لا يرتفع ضغط الدم، أو أتعرض لهبوط فى القلب!

ولقد خضعت لهذا النظام فترة طويلة، فاكتسبت صحتى نضارة، ولكن عقلى أخذ يذوى، ويذبل وخيل لى أنى فقدته فكنت أدق على رأسى

بأصبعى.. أحاول أن أبحث عنه كما لو كان شيئاً مادياً ضاع منى!

وفى هذه الفترة قرأت كتاباً قيماً عنوانه «عقلك مصدر الصحة والمرض» وهو من تأليف الدكتور «ك. س. وختل» وقد ولد فى ألمانيا عام ١٨٩٧ وتلقى علومه فى جامعاتها، وتخصص فى الطب العقلى، والطب النفسى الجسمى، ورحل إلى أمريكاً فى ١٩٣٧. وتوفر على معالجة حالات كثيرة من الأمراض، وعكف على دراسة مرضاه نفسياً وجسمياً، وعقلياً واستخدم دراساته وتجاربه فى كتابه الشائق الذى يقع فى أكثر من ٣٠٠ صفحة.

وقد ترجمه الأستاذ سامى على الجمال وراجعه الدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة.

والفكرة الجوهرية للكتاب هى - كما يقول الدكتور مراد - أن ما يحدثه التفكير الخاطئ من اختلال فى الصحة الجسمية والنفسية، يمكن للتفكير السليم الواقعى أن يعالجه. ولا يعتمد المؤلف فى تدعيم فكرته على مجرد الجدل النظرى، بل يذهب مباشرة إلى الواقع ويستخرج من ملفات مرضاه عدداً كبيراً من الحالات، تاركاً للواقع الحى، أن يتحدث بلغته المقنعة.

ولقد أخذنى الكتاب بأسلوبه البارع فى سرد التجارب، وشرحها وتيسيرها بحيث يستطيع القارئ العادى أن يستوعب أدق الحالات.

والكتاب يتناول عدة فصول أهمها «ما الذى يجعلك مريضاً، وما الذى يجعلك سليماً» و«المريض بالوهم مريض فعلا وعقله يستطيع أن يشفيه».

وكل فصوله تزخر بقصص حقيقية لمرضى باشر الدكتور «وختل» علاجهم بنفسه. وبينهم من أدرك عقله حقيقة ما يعانيه واتبع نصيحة الأطباء فعاش، وبينهم من أخطأ فهم الحقيقة أو أدركها ولكنه لم يقتنع

بها فمات.

أحد المرضى كان يشكو من المرض بصفة عامة، وعرض نفسه على أمهر الأطباء فأثبتوا له أنه ليس مريضاً. ولكنه لم يصدق أطباءه وصدق نفسه، وانتقل إلى العالم الآخر.. وجاء فى تقرير وفاته أنه «مات فى أحسن صحة».

استهوتنى من الكتاب نظرية تؤكد أن الأمراض والإصابات تثير فى الجسم نشاطاً داخلياً فيرسل الجسم تلغرافات إلى المخ، ويتولى العقل حل رموز هذه التلغرافات.. مثلا إذا أصابك جرح خارجى فإنك تتلقى من داخل الجسم برقية تأمرك: «بأن تضمد الجرح وتستدعى الطبيب» والعاقل من ينفذ الأمر فوراً فيظفر بالشفاء!

ولقد دفعنى الإعجاب بهذه النظرية إلى أن أطبقها على نفسى، فجعلت من مخى جهاز استقبال للبرقيات التى أتلقاها من داخل جسمى.. وكانت أول برقية مغصاً فى الجانب الأيمن من البطن وحللت رموزها فإذا هى حالة «مصران» أعور.. وذهبت إلى الطبيب وفحصنى وقرر أنى لا أعانى أى التهاب لا فى «المصران» الأعور ولا فى «المصران» الغليظ!

وكانت البرقية الثانية ضيق تنفس وفهمت من الرموز أن هذا الضيق إنذار بذبحة.. وفحصنى الطبيب وقرر أننى على ما يرام.. وكانت البرقية الثالثة دواراً فى رأسى وارتخاء فى جفونى، وأدركت أن هذه أزمة كبد.. وفحص الطبيب حالتى وقال لى: الكبد فى أحسن حال!

وكنت وأنا مهتم هذا الاهتمام بالبرقيات التى أتلقاها من صدرى وأمعائى أسير طبقاً للنظام الطبى الصارم. لا سهر، ولا تدخين، ولا طعام، ولا قهوة، ولا انفعال بالحياة!

وفى لحظة من لحظات هياج الأعصاب قررت أن أصفى جهاز استقبال التلغرافات، التى أتلقاها من داخل الجسم حتى أريح نفسى من الحيرة هل أنا أعانى المرض؟ أو أنا أعانى الوهم.. ثم إنى وجدت أن اهتمامى بصحتى، قد أورثنى ضياع عقلى.. فإن اتباعى لنصيحة الأطباء قد حولنى من جثة هامدة إلى جسد يتحرك ولكنه فى الوقت نفسه قد جعل من رأسى ضريحاً يضم رفات عقلى!

إن النظام الذى وضعه لى الأطباء يحتم أن استسلم للفراش. يرقد جسدى فلا يتحرك. ويرقد عقلى فلا يفكر.. ويرقد قلبى فلا ينفعل!

وهذا النظام قد يطيل عمرى، ولكنه لن يطيل حياتى.

لقد قاطعت السجائر، فشفى الله صدرى وحلقى من الكحة والسعال، ولكنى كنت أحس أن عقلى يسعل ورأسى يكح.

إن دخان السيجارة هو العصا التى تتوكأ عليها خواطرى، والأجنحة التى تحلق بها أفكارى وأنا لا أستطيع أن أعيش بدون خواطر، وأفكار!

العقـــاد

اليوم يجتمع أصدقاء أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد، فى مسكنه القديم بمصر الجديدة، لمناسبة بلوغه العام الرابع والسبعين. وقد قرروا أن يحتفلوا بهذه المناسبة فى الصباح..

فالعقاد الذى سهر الليالى ستين عاماً يبحث، ويفكر، وينظم الشعر، ويؤلف الكتب. أصبح بحكم السن لا يسهر إلا فى النهار!

إن العقاد أستاذ جيلين أو أكثر فمنذ نيف وخمسين عاماً بدأ اسمه يظهر فى حياتنا الأدبية، كأحد ثلاثة من طليعة الثائرين المجددين فى الشعر، الداعين إلى وحدة القصيدة.

أما زميلاه الآخران فهما عبدالرحمن شكرى وإبراهيم عبدالقادر المازنى.

وقد كتب العقاد مقدمة الجزء الأول من ديوان شكرى فى عام ١٩١٢. وتعد هذه المقدمة أول دراسة جاءت واعية لمفهوم الشعر، ومن يقرؤها اليوم تأخذه الدهشة لما تنطوى عليه من آراء متطورة والتفاتات ذهنية إلى جميع اتجاهات الأدب العالمى.

وقد ظل العقاد طيلة حياته يمارس الكتابة والاطلاع، والدرس بعمق ومعاناة ويتزود بالثقافات الإنسانية على اختلافها، ويتابع بفهم ووعى كل ما يصدر فى العالم من كتب فى الفلسفة وعلم النفس، والمنطق، والسياسة والتاريخ، واللغة، والدين، وفنون النحت، والرسم، والموسيقى والمسرح.

والعقاد شخصية إنسانية فذة فهو أستاذ نفسه. وتلميذ نفسه أيضاً.

فمازال حتى هذه اللحظة يخصص وقتاً لتلمذته هو الوقت الذى يقضيه فى القراءة، ويخصص وقتاً لأستاذيته هو الوقت الذى يكتب فيه!

والعقاد شاعر، ومفكر، وكاتب. وقد اشتركت فى تكوينه نزعة العاطفة ونزعة العقل، وكان فى مطلع شبابه لا يتحيز لإحدى النزعتين وأخيراً آثر العقل ولاذ بحماه فهو يسيطر بعقله على جميع انفعالاته العاطفية والفكرية وما أكثر ما اشتبكت فى عقل العقاد عناصر الشك واليقين. ثم انتهى هذا التشابك إلى إيمان راسخ بالدين والعلم معاً.

ولقد أصدر العقاد حوالى ثمانين كتاباً تؤكد جدارته بالقمة التى يجلس فوقها.

وعندما بلغ السبعين من عمره كان عدد الكتب التى ألفها يوازى عدد السنين التى عاشها، وقد سألته إذ ذاك:

«لو التقى بك التاريخ وقال لك أنا مسافر الآن إلى الأجيال القادمة.. وأريد أن أحمل معى إلى أبناء هذه الأجيال كتاباً واحداً من كتبك فما هو الكتاب الذى تختاره؟».

فقال بلا تردد: أختار كتابى عن ابن الرومى..

وابن الرومى معروف بشؤمه، وقد لحق شؤمه بالعقاد. فعندما كان يؤلف هذا الكتاب قدمته النيابة إلى المحاكمة بتهمة العيب فى ذات الملك فؤاد وأدانته محكمة الجنايات، وأمضى فى السجن تسعة أشهر.

وسألت العقاد: لماذا اختار كتابه عن ابن الرومى؟

فقال: هذا الكتاب يحدد مقاييسى فى النقد، وخلاصة رأيى فى الأدب الإنسانى.

ودار بينى وبينه حوار أسجل منه هذه السطور:

- ألا تخاف على نفسك وأنت فى التاريخ من شؤم ابن الرومى؟

العقاد: إننى ما خفت على نفسى من شؤم ابن الرومى وأنا حى أستطيع الخوف.. فهل أخاف منه بعدما تنتهى الحياة وأصبح عاجزاً عن كل شىء. حتى عن الخوف!

- ألا تخشى أن يمتد شؤمه إلى عمرك الآخر.. عمر الخلود؟

العقاد: أصبحت لا أكترث بالخلود!

- هل تتساوى قدرتك على التعبير الفنى مع قدرتك على تلقى المعلومات والانفعال بالشعور؟

العقاد: أظن.. ربما.. نعم!

- هل تحب أن تغزو التاريخ بشعرك أو بكتابتك؟

العقاد: بشعرى..

- وأى قصيدة تختارها لتغزو بها التاريخ؟

العقاد: قصيدتى «ترجمة شيطان».

- ولماذا تختارها وحدها؟

العقاد: لأنها تصور منى الجانب الشعرى والجانب الفكرى.

- هل تعتقد أن التاريخ سيحتفظ بكتاب آخر من كتبك غير كتاب ابن الرومى وقصيدة أخرى من شعرك غير قصيدة ترجمة شيطان؟

العقاد: هذا الأمر لا يعنينى!

ربما شك بعض الناس فى أن العقاد لم يقل الحقيقة عندما أجاب هذه الإجابة. ولكن الذى لا شك فيه أن الاحتفاظ بآثار العقاد أمر يحرص عليه التاريخ.

الفقر الذكى.. والثراء الغبى!

ماذا تصنع لو خيرتك الأقدار بين أن تكون فقيراً ذكيا، أو ثريا فى منتهى الغباوة؟

إذا تركت نفسك لسجيتها، فسوف تختار حتماً، الثراء مع الغباوة.. فالفقر يقتل فى الإنسان كل شىء، يقتل المواهب، والمشاعر، والمعانى... إنه يحول القوة إلى ضعف، والصحة إلى مرض، بل إنه يحول الذكاء المفرط، إلى غباوة مطلقة!

وقديماً دعت أعرابية لطفلها الوليد أن يرزقه الله حظاً يخدمه أصحاب العقول، ولا يرزقه عقلاً يخدم به أصحاب الحظوظ!

وهو دعاء يتمشى مع الغريزة، والفطرة، ومنطق الحياة..

أنا شخصيا أوثر أن أكون ذكيا ولكنى أكره الفقر.

وليس معنى ذلك أنى أحب المال. أو على الأصح لست أعرف كيف أحدد علاقتى بالمال، هل أحبه أو أكرهه. فما أكثر ما تتجمع الأموال فى يدى، وما أكثر ما أبددها.. وكلما عضنى الإفلاس بأنيابه الحادة لجأت إلى مصل السلف.. أحقن به نفسى! أحياناً أحصل على هذا المصل من البنك، أو من إدارة الجريدة وأحياناً أحصل عليه من السوق السوداء بواسطة المرابين!

والذين يروننى يظنوننى فى حالة ثراء فاحش.. فأنا أتصرف فى المال كالأغنياء، والفرق بينى وبينهم أنى أنفق آخر قرش، وهم ينفقون أول قرش.. وأنا مثل الأغنياء أتعامل مع البنوك والفرق بينى وبينهم أنهم يدينون البنوك، وأنا أستدين من البنوك!

هناك كثيرون يحصلون على المال ويحددون إقامته فى عمارة أو أرض، أو سهم، أو سند، أو رصيد.. ولست من هؤلاء، فإنى لا أكاد ألقى القبض على المال، حتى أطلق سراحه وأتركه يركض دون أن أسأله إلى أين؟ دون أن أعرف هل يعود أو لا يعود!

ولعلى لم أجب بعد عن سؤالى: هل أحب المال أو أكرهه؟ وما أظننى أردت بهذه الكلمة أن أجيب عن هذا السؤال، وإنما أردت أن أسجل شعوراً تائهاً مبهماً.

ولكن لماذا انتابنى هذا الشعور اليوم بالذات؟

كنا نتحدث عن أمراض السكر، ضغط الدم، وتصلب الشرايين، وكان بيننا أساتذة فى الطب فأجمعوا على أن هذه الأمراض تظهر بكثرة فى الطبقة الغنية، وتختفى فى الطبقة الفقيرة، فقد ظهر من إحصاءات دقيقة أنه يوجد بين كل مائة غنى تسعون غنياً يعانون أمراض السكر والضغط وتصلب الشرايين. فى حين لا يوجد بين كل ألف فقير أكثر من شخص واحد يعانى هذه الأمراض.

وقد علل الأطباء الفنيون هذه الظاهرة، بقدرة الأغنياء على ملء بطونهم بالأطعمة الدسمة، والحلوى، والنشويات.. وليس هذا هو السبب الوحيد للأمراض التى أشرت إليها، فهناك نظرية ترى أن الخوف يجلب هذه الأمراض. ولقد قام أحد العلماء بتجربة أكدت صحة النظرية: حبس قطاً فى وضعين متقاربين. وقاس ضغط الفأر وضغط القط قبل حبسهما فوجد الضغط عندهما عادياً. وبعد شهر قاس ضغط القط فوجده كما هو، وقاس ضغط الفأر فوجده عالياً جداً.. وخرج من هذه التجربة بأن خوف الفأر من القط المجاور له هو الذى ضغط دم الفأر!

والخوف يدخل حياة الأغنياء ولا يدخل حياة الفقراء.. فعند الأغنياء

ما يخافون عليه من مال ومتعة، وجاه.. أما الفقراء فليس عندهم أى شىء يخافون عليه!

ولقد تآمر الترف والخوف على الأغنياء، فأصابهم بالسكر، وضغط الدم، واختصر أعمارهم.. ونجا الفقراء من الترف والخوف معاً فطالت أعمارهم، ولم يتعرضوا لهذه الأمراض الوبيلة، وكل مرض يصيبهم قابل للبرء والشفاء.. بما فى ذلك أمراض السل والأنيميا، والتهاب الرئة!

أما الأغنياء فلا يمكن أن يبرءوا من أمراضهم إلا إذا عاشوا كما يعيش الفقراء.. يعملون، ويكدحون، ويمشون ويمتنعون عن النشويات والدهنيات!

فكيف نفسر هذه الظاهرة؟ هل نفسرها بأنها عدل طبيعى لمحو الفوارق غير الطبيعية بين الأغنياء والفقراء؟ هل نفسرها بأنها سيطرة الذكاء الفقير على الثراء؟ إننى أميل إلى هذا التفسير الأخير.. فمنذ آلاف السنين احتكرت طبقة غنية قليلة العدد خيرات بلادنا. كانوا هم يملكون الأرض وكان الفقراء يعملون. كانوا يجنون، والفقراء يزرعون ويكدحون واستطاع الزارعون الكادحون بذكائهم أن يقنعوا الأغنياء بأن الأذرة، والجبن القريش، واللبن الرايب ليست إلا توافه. وأن الخير فى دقيق القمح الأبيض، والجبنة الدسمة، والقشدة والسمن.. وظل الأغنياء يأكلون هذه الأطعمة التى تضغط دماءهم وتوتر شرايينهم.. وعاش الفقراء على الأطعمة التى أصبحت أحدث دواء لضغط الدم، وتصلب الشرايين.. وهى الجبن القريش، واللبن الرايب، والخبز المصنوع من الأذرة.

ويخطئ القارئ إذا ظن أن هذا الكلام بحث فى فلسفة الغنى والفقر والذكاء، والمرض.. فليس هذا الكلام فى الواقع إلا تحية لآبائنا الفلاحين الفقراء الأذكياء الذين استطاعوا أن ينتقموا من ظالميهم فيدسوا لهم السم فى الدسم.. فى الزبدة والسمن واللبن الحليب والبيض ودقيق القمح الأبيض!

قفى أيتها الأيام!

قفى أيتها الأيام، إنك لا تقطعين طريقاً.. ولكن تقطعين عمرى.. استريحى وأريحينى، فقد ظللنا نجرى معا أكثر من ثلاثة وخمسين عاماً..

ولكن.. كيف نتوقف عن المشى؟ إن معنى ذلك أن نموت، وأنا أتشبّث بحياتى، وهى مهما ترهقنى.. أحبها، إننا نبكى منها، وإذا هدّدتنا بالتخلى عنا.. بكينا على أنفسنا!

وما أعجب العمر!! إنه الشىء الوحيد الذى إذا زاد نقص.. وفى هذا اليوم ينقص عمرى.. فقد أضافت إليه الأقدار عاماً جديداً!!

* * *

وجهة نظر
مولد الرسول

هذا الإنسان العظيم جعل من الكلمة سلاحاً ونوراً. فبالكلمة التى تلقاها من ربه، بالقرآن بين للناس الحق من الباطل، والخير من الشر، وبالكلمة دعانا إلى أن نتأمل، ونرتفع وننمو، ونتقى، ونحب الآخرين.

ولنفكر فى كل شىء: فى أنفسنا، فى السماء، فى الأرض، فى الله.

ولنمد يدنا للفقير. وما نعطيه لهم ليس صدقة، ولكن حق لهم عندنا!

ولنعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً.. ولنعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً..

ولنتحرر من الضعف فلا انحلال ولا استخذاء، ولكن قوة نحارب بها أعداءنا، فإن جنحوا للسلم جنحنا لها، ولا استغرق فى الكون، ولكن ممارسة للحياة.. ولا انعزال عن المجتمع ولكن اندماج فيه، ومشاركة فى العمل والبناء..

ولنقذف بالأوهام إلى قاع سحيق.. فلا سحر، ولا شعوذة، ولا رجم بالغيب.. وكذب المنجمون ولو صدقوا!

ولا تأليه لطاغية، أو صنم، أو شهوة. ولكن تحطيم للطغاة، والأصنام والشهوات.. فلا إله إلا الله!

والمسلم لا يتعصب ولكن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وهو يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فلا تفرقة عنصرية ولا تمييز لجنس أو لون، فلا فرق بين عربى وأعجمى إلا بتقوى الله!

والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده.. والإسلام سلام.. فتحية المسلمين فى الدنيا: السلام عليكم، والجنة تحيتهم فيها سلام!

وقد عمت رسالة نبى الإسلام العالم، وصارت حضارة فكرية نامية، وعقيدة دينية راسخة.

وصلى الله على محمد....

obeikan.com

إلى أين....؟

فى منتصف ليل أمس، وعلى قرع أجراس الكنائس، وخلال فترة ظلام صاخب، امتدت يد القدر إلى حياتى فانتزعت منها عاماً كاملاً..

وكم من مرة انتزع القدر من حياتى أعواماً وأعواماً، فما تألمت، ولا جزعت لأن أيامى كانت كثيرة... كنت فى ثراء فاحش من صبای وشبابى... ولكن أيامى اليوم قليلة.. وانتزاع عام منها يشعرنى بالفقر، والفراغ، والعدم... فقد تجاوزت الأربعين، تجاوزتها وحدى لا صحة، ولا مال، ولا زوجة ولا ولد، ولا صديق..!

إلى أين أيها العام المنقضى...؟ إلى أين أنت ذاهب بأعمارنا، وإلى أين نحن ذاهبون...؟ ولو كنا ندرى لما سحقتنا الحسرة والحيرة، ولو كنت تدرى لكان لنا فيك عزاء عن جهلنا، ولكنك مثلنا تجهل ولا تعلم..!

وإلى متى نرى أعمارنا هكذا تجرى بلا قيد وراء الأعوام الذاهبة..؟ ونرى آمالنا ترسف، بل تحجل، وكأنما هى مشدودة إلى جبل..؟

ولكن علام نبكى الحياة، وماذا لو رحلت عنا، أو رحلنا عنها.... ما دام الرحيل هو الغاية والهدف...؟

وما هى الحياة..؟ إنها كما يقول «أبوالعلاء».

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد.

وهل نحن، والحياة، والموت.. إلا كما يقول «إديسون»: نئن ونبكى وهذه هى الحياة.. ثم نتساقط ونذهب.. وهذا هو الموت»!

أمض أيها العام.. أمض.. فغداً مثلك سنمضى..!

رسائل حب

كان كامل الشناوى يحرص على أن يعبر عن خلجات نفسه، وخفقات قلبه وفوران عواطفه فى رسائل يكتبها للملهمة التى أحبها بصدق بعضها أرسله إليها والبعض الآخر احتفظ به.

تلك الرسائل احتفظ بها ورحل وتركها فى أدراج مكتبه، حرص شقيقه الشاعر مأمون الشناوى على أن ينشرها للقراء بعد أن رفع منها الأسماء وبعض الوقائع التى ربما قد تشير ولو من بعيد إلى من عناهم بها.

تلك الرسائل تعكس مشاعر اللهفة والحنين والصدق فى حب هذا القلب العاشق الذى لم يجن من حبه سوى العذاب والألم والدموع الصامتة!

أنها خفقات قلب.. وأنات روح.. ومشاعر شاعر أحب فعشق فصدق، ثم تعذب وبكى وتألم!، وبعد، فهذه هى بعض تلك الرسائل.

وكل الدلائل تشير أنه كتبها للمطربة "المنيون" التى أحبها والتى قال عنها فى إحدى خواطره:

«ياقدرى الشقى...ياحبى

متى تيأس منى، فلا تطاردنى، ولا تغرينى بأن أطاردك؟!

وكانت مأساة قلب كامل الشناوى أنه أحب لدرجة العشق المجنون، فبعد أن اكتشف خيانتها لم يستطع أن ينساها أو يكرهها، حتى أنه صرخ فى قلبه المشدود إليها متمردا:

كيف يا قلبى ترتضى طعنة الغدر فى خشوع؟

وتـداري جـــــحـــــودها   فـي رداء مـن الـدمــــوع؟
لـســت قـلـبـي..وإنمـا   خنجـــر أنت في الضلوع؟!
دمـــرتـنـي لأنـنـي   كنت ـ يومـا ـ أحـبـهـا
وإلـى الآن لـم يـزل   نـابضـا فـيك حـبـهـا؟
لـسـت قـلـبـي أنـا إذن   إنما أنـت قـلـبـهـا

ولأن الشاعر لم ينسها، فقد ظل يناجيها في رسائل حبه ويعاتبها، ويهاجمها، ولكنه لم يكرهها، وقد ذكر شقيقه مأمون الشناوي قصة هذه الرسائل ولماذا قرر نشرها، فقال:

«ترددت طويلا قبل أن أشرع في تقديم هذه الرسائل.. فصاحبها الشاعر الفنان كامل الشناوي لم يكتبها لتنشر على الناس وأنما كتبها لتقرأها واحدة من الناس كتبها واحتفظ بأصولها لديه، ولعله لم يرسل هذه الرسائل.. ولعله بعث بها كلها.. ولكن لاشك أن ثمة رسائل أخرى كثيرة ذهبت إلى من وجهها إليهم دون أن يحتفظ بأصولها.

ولقد حسمت ترددي وأقدمت على نشر هذه الرسائل بعد أن رفعت منها الأسماء وبعض الوقائع التي ربما قد تشير ولو من بعيد عناهم بها.

وبعد، فهذه هي بعض رسائل كامل الشناوي العاطفية التي كتبها للمرأة التي أحبها بكل نبض قلبه، وبكل صدق مشاعره نلمس فيها حرارة العاشق المفتون، وثورة القلب المهجور، وغضب الوجدان المجروح من تلك الملهمة التي أدمت قلبه، وأسالت دموعه، وأهدرت كرامة المحب المفتون.. إنها خفقات قلب، وهمسات روح قبل أن تكون مجرد رسائل حب.

رسائل حبه إليها

(١)

حبيبتى...

اغفرى لى هذه الحماقات... اغفرى لى حبى... ووفائى... واصفحى عن قلبى المسكين فقد أحب بلا قصد... ولا عمد... ولا سبق إصرار وأنسى كل التفاهات الكثيرة المتعددة التى طالما خدشت بها أذنيك معبرا عن ألمى وغيرتى!

فما كان لى أن أتألم... ولا أن أغار؟ وما كان لى أن أدع شعورى بالألم والغيرة يطرق سمعك الرقيق الذى ما تعود غير كلمات الرياء والخداع والثناء...

لا تظنى بى السوء أو الشر فما كنت سيئا ولا شريرا.

كل ما هنالك أننى أردت أن أرفع روحى إلى سمائك فوجدتنى فى الهاوية... ولست أدرى هل أخطأت الطريق إلى السماء فهويت... أم أنك لم تكونى قط فى السماء!؟

إنى أكاد أفنى خجلا وحياء كلما تذكرت كلمات الطهر والبراءة والقداسة التى أتعبتها من طول ما مرت بشفتى ولم تستطع الكلمات ولم تستطع شفتاى أن تجعلها تتجاوز فمى إلى أذنيك...

لقد كنت أطمع فى أن أصبح فى مكان الإعزاز من نفسك... واخجلتاه من هذا الغرور... ولكنى يعزينى أنه لم يدم طويلا... فلقد عرفت فى وقت

قصير أنى لن أكون فى هذا المكان لا لأنه لا يوجد فى قلبك... بل لأن قلبك ليس له وجود! وظننت أنى قد أكون صديقا... فإنك تحسنين لقائى وتبتسمين لى وتشدين على كفى بقوة واندفاع... وهذه معاملة الأصدقاء... واسترحت قليلا لهذا الوهم الذى فلسفت به عواطفك... ثم إذا بى أراك تحسنين لقاء الناس جميعا وتشدين على أكفهم جميعا بقوة واندفاع...

ما أكبر حزنى... لقد تخيلت أن هذه الابتسامات وهذا الحنان وهذه الرقة تخصيننى بها وحدى ولم أدرك أنها صورة معروضة أمام جميع الأنظار... وكتاب منشور للقراء... وإذا أنت كالوردة لا تضن بعبيرها على من يزرعها فى حديقته ولا على من يسرقها من حديقة الجيران!

طالما اتهمتك بالدهاء فى المعاملة ولباقة التصرف وكياسة السلوك... أبدا لست كذلك... إنما أنت دمية جميلة صنعت هكذا ولا حيلة لها فى نفسها... ولا ضير عليك وإنما الضير على أولئك الذين ظنوك مخلوقا يحس ويعقل... ولكن كيف تكونين دمية؟ وهذا الجمال كله أيكون من صنع بشر؟ أأنت من صنع إنسان؟؟ كلا بل خلقك الله كما خلق الشيطان والأفعى.

ولقد أحببت من أجلك كل شيطان وكل أفعى... ولست آسفاً... والحزن الذى سيطر على نفسى سأعرف كيف أمسحه بدموعى..

(٢)

حبيبتى...

مازلت على هدوئى

لم أثر... ولم أغضب... ولم أعاتبك ورضيت أن أتقبل مصيرى كما هو... لا كما أرجو أن يكون من يدرى...

(٣)

حبيبتى...

لقد أحببتك من قلبى... وكرهتنى من قلبك!

منحتك دمى ووقتى وعقلى... ثم كشفت لك صدرى لأتلقى أوسمة رضاك... فرشقت مكان الأوسمة سهاما مسمومة.

لقد فتحت لك ذراعى لتملئي بوفائك ما بينهما من فراغ فإذا أنت تملئين هذا الفراغ غدرا وحقدا.

(٤)

حبيبتى...

أنسى؟ وكيف أنسى هذا الحب ولا حياة لى بغيره.

حاولت أن آخذ بنصيحتك... حاولت أن أنسى فانطلقت الذكريات من أعماق الماضى تشحن بالجراح نبض قلبى وخلجات نفسى.

(٥)

حبيبتى...

إننى هنا أبذل محاولتى الأخيرة فأصارحك بالحقيقة.

إنك لم تكونى لى مخلصة ولا وفية ذات يوم... لا حبا فى خيانتى والغدر بى... ولكنك عاجزة عن الإخلاص والوفاء...

ربما كانت هذه فلسفتك فى الحياة

وليس من حقى أن أثيك عنها... كما ليس من حقك أن ترغمينى على الرضوخ لها.

(٦)

حبيبتى...

كيف بكيت من عتابى؟

لأول مرة فى حياتى أرى القسوة تبكى!

أذهلنى أن أرى الروح الكثيفة تستشف الألم وتتأثر!

لعلك مظلومة... ولكن لماذا تلجأين للصمت وراء الدموع؟

لماذا لا تتكلمين... فربما قاومت الأقدار التى كتبت لك الغدر وكتبت لى الوفاء؟

أصارحك بأنى ضعفت أمام دموعك... ضعفت أنا وبقيت المشكلة قوية كما هى... بل أقوى..

(٧)

حبيبتى...

ولا تظنى أنى أتشبث بك... ولكنى أتشبث بقلبى الذى مزقه حبى لك... وبكبريائى التى أهدرتها بيديك...

أتشبث بهذه الدموع التى أرقتها فوق رمال محرقة.

(٨)

حبيبتى...

أتعجبين حقا من أننى أعيد سماعة التليفون إلى مكانها بمجرد الاستماع إلى صوتك.

ألا تعرفين السبب؟

إذن فلأصارحك

فمازلت على خطتك الهابطة وأسلوبك الملتوى...

إننى أسمع صوتك فى التليفون فيخيل لى أنك تخاطبين شخصا آخر... لا صدق... ولا عاطفة بل لا صوت... وإنما هى أصداء حديدية تتردد فى آلة من حديد...

معذرة يا سيدتى فأنت على حق حين تسألين: لماذا أثور هذه الثورة...

نعم... لماذا كل هذا... لماذا أشقى نفسى بمعان لم يكن لها وجود فى نظرك!

أليس أجدى من كل هذا أن أنفض قلبى من حب ذهب ولن يعود.

وفيم أحزن وأشقى، بل وفيم أذكرك؟ لماذا أبكى منك أو أبكى عليك؟

(٩)

حبيبتى...

وعدتنى بزيارتى... ولكن كعادتك أخلفت وعدك... واعتذرت بأنك مريضة.

وتشاء الأقدار أن أراك فى نفس اليوم وبعد الموعد بقليل هناك على شاطئ النيل فى المكان الذى أعد ملتقى للأحباب والعشاق.

أى شىء أنت؟ أى جناية؟ أى جريمة؟ أى مأساة... معذرة أيتها الملاك... فأنا وحدى الجريمة والجناية والمأساة...

* * *

«من رسالة له إلى صديق»

عزيزى...

تقول إنها ليست فى حاجة إلى المال وتدهش لأنها تطالبك بمال ليست فى حاجة إليه.

إنها يا صديقى كميزان الطريق لا تقدر وزنك إلا إذا وضعت القرش فى ثقبه!!!

«من رسالة إلى صديق»

عزيزى...

إنها لم تخدعك... أنت الذى خدعت نفسك... وظننت أنها لك وحدك...

لم تخدعك... لأنها تكون لك وحدك حينما تكون معك أنت وحدك ولا أحد سواكما فى المكان.

(١٠)

حبيبتى...

لم يعد بيننا ما يغرى بأن أخدعك، أو تخدعينى فقد خرجت من حياتى وأنا أيضا خرجت من حياة نفسى! لا تدهشى... فالحياة التى أحياها اليوم لا يربطنى بها ما يربط الناس بحياتهم من أمل ويأس... أو راحة وعذاب... إنها حياة لا أتحرك فيها، ولكن أتمدد كجثة... وهى لا تضمنى بين أحضانها ولكن تلفنى كالكفن!

فى استطاعتى الآن فقط أن أصارحك بحقيقة قصتى معك... لقد خدعتنى... وخدعتك... خدعتنى بكذبك الذكى، وخدعتك بصدقى الغبى.

ظللت سنتين كاملتين أتوهم أنك تحبيننى، فجريت وراءك بقلبى الأبله ومشاعرى الحمقاء... وخلال السنتين كنت أنتزع من نفسى خلجاتها وأقدمها لك فى آهة، دمعة، كلمة، قصيدة... وقد دفعك إيمانك بصدق عاطفتى إلى أن تمارسى حقوق حواء بقدرة وجدارة... فغدرت بوفائى وضحكت من دموعى!

واستطاع حبى لك أن يحررنى من سيطرة عقلى على تصرفاتى. فكنت إذا مشيت أتخبط، وإذا فكرت أهذى... وأخذت - كأى مجنون- أتناول كل ما تقع عليه يدى وأحطمه... ومن سوء حظك أن يدى وقعت على قلبى ذات ليلة وحطمته، وبدأت منذ تلك الليلة أفيق من غفلة القلب وأعرف الحقيقة الضارية.

هل تذكرين تلك الليلة...؟ أنا أذكرها فاستمعى لى، ولا تحزنى!.

لقد حاولت أن أنساها، ولكننى لم أستطع... ففى حياة الناس أشياء يعجزون عن نسيانها لأنها تثير خجلهم... وكم شعرت بالخجل وعانيته طيلة هذه السنين، وأعتقد أن خجلى سيعيش معى إلى أن ألفظ آخر أنفاسى... فإن ذاكرتى لا تريد أن تنسى هذه الليلة.

***

كنا فى بيتك القديم، وكان مفروضا أن نسهر فيه لنحتفل بعيد ميلادك التاسع عشر. وكان المدعوون يزيدون على العشرين، بينهم قليلون أعرفهم، وآخرون لم ألتق بهم قبل اليوم... وبغتة أعلنت أن الاحتفال بعيد الميلاد ينتقل إلى مكان آخر، وسألتك عن المكان فأرسلت ضحكة تنبض

بالخبث والجاذبية... وقلت لى ستعرف المكان عندما تصل إليه. وقلت لك إننى أخشى أن يكون مكانا عام.

فسألتنى: هل تخشى من الأمكنة العامة؟

وأجبتك بأننى لا أخشاها ولكنى لا أستريح إليها فى مثل هذه المناسبات.

قلت: اطمئن... سنذهب إلى بيت أحد الأصدقاء الموجودين معنا الآن.

- ربما كان صديقك غير مستعد لاستقبالى فى بيته. وربما كنت أنا غير مستعد لقبول دعوته المفاجئة!

وقلت: إنه يكن لك الحب والاحترام

- من هو؟

وقلت: ألا تزال تصر على أن تعرفه منذ الآن؟

- كل الاصرار؟

* * *

وغبت عنى لحظة، وحضرت لى... وفى إحدى يديك ذراع شخص فى حدود الأربعين... يضع على عينيه نظارة سوداء، إطارها من الذه ب، وفى معصمه ساعة كبيرة أسورتها هى الأخرى من الذهب... وقد اعترضت صدره سلسلة ذهبية ضخمة، وتدلت من رقبته ربطة عنق فاقعة اللون، يتوسطها مشبك من الذهب الخالص... وفى إصبعين من أصابع يديه خاتمان أحدهما يبرق منه فص من الماس، والآخر له فص من الفيروز. حذاؤه أسود لا مع وبذلته جديدة بلا أناقة. قميصه أبيض وله كمان يمسك بهما زراران هما سلسلتان تنتهى كل منهما بقطعة نقود ذهبية من

فئة الجنيهات الخمسة!

وكان الرجل مزهوا بنفسه يتحدث عن أعماله التى لا تترك له وقت فراغ... وحاولت أن أعرف من طريقة حديثه نوع العمل الذى يمارسه، فخطر لى أنه مقاول، أو تاجر فى وكالة البلح، أو سمسار!

وقد أدهشنى أنه محام، وأنه يتولى قضاياك! وحاول الرجل أن يكون لطيفا معى فدعانى إلى بيته بإلحاح.

وحاولت أن أكون سخيفا معه فأفهمته أنى مرهق.. وأن السهر يتعبنى، وأنه لم يكن فى نيتى أن أمكث هنا إلا وقتا قصيرة ولكن لطفه تغلب على سخافتى.. وذهبت مع المدعوين إلى بيته وهو بيت أشبه بصاحبه.. فيه كل مظاهر الترف والثروة.. والتفاهة.. والذوق الغبى.

وانصرفت بعدما أطفأنا الشموع التسع عشرة.. وأحسست أنى أطفأت شمعة حبى مع هذه الشموع!

تركت السهرة وعدت إلى بيتى.. حاولت أن أنام ولكن الأرق ظل يتبعنى ويرسم لى كلما أغمضت عينى صورة بشعة لهذا المحامى الذى آثرت أن تحتفلى بعيد ميلادك فى بيته!

وكنت وأنا أعانى الأرق، أعقد مقارنة بينه وبينى.. فيقنعنى غرورى بأنى خير منه. وأثور عليك لأنك تخصينه بحبك، أو على الأقل بإعجابك وثقتك.. فى حين تعرضين عنى وتجرحين كبرياء حبى.. ولقد تساءلت عما يمكن أن يصنعه لك هذا الرجل.. أهو إغداق المال عليك؟ ولكنك لست فى حاجة إلى مال، ولم أعرف عنك رغبة فى استغلال ثروات الناس.. بل العكس هو الصحيح.. فما أكثر الذين استغلوا سخاءك ممن تعرفين، وممن لا تعرفين؟ هل سر تعلقك بالمحامى أنه بارع فى كسب قضاياك ازدحمت

بها المحاكم؟ ولكنك لم تكسبى حتى الآن قضية واحدة!.. لماذا إذن تتشبثين به.. هل يجيد الترافع عن جاذبيتك. هل يجيد الترافع عن جاذبيتك.. أن قلبى يترافع كل يوم عما تمتازين به من سحر وجاذبية وليس له عندك إلا الغدر والجحود.. هل يستطيع محاميك أن يرسم لك صورة فاتنة كتلك الصور التى رسمتها من خفقات قلبى ودمع عينى؟

ولكن متى كان للحب منطق حتى أناقشه بهذا الأسلوب؟

إن الحب ليس له عقل، وهو قادر على أن يسحق أكبر العقول. ولست مغرورا حتى أتصور أن لى عقلا كبيرا.. ولكنى شجاع إلى حد الاعتراف بأن الحب انتزع عقلى من رأسى، وألقى به فى عرض الطريق.

وفى بعض الأحيان أعثر على عقلى، وأضعه فى رأسى وأفكر فيما صرت إليه معك، ويكاد تفكيرى يخنق أنفاسى ويضغط دمى.. وأنا الآن أخاطبك وأنفاسى مختنقة، ودمى مضغوط.. ولست ألتمس منك عفوا عن الذى قد يصيبك بصراحتى.. فالأذى يقربنى إليك.. وأنا برغم كل شىء أحرص على قربك يا صديقتى ذات يوم، وعدوتى فى كل يوم!

نسيت أن أقول لك إننى تقابلت مع محاميك فى الكافتيريا، وأمضينا ساعة تحدثنا خلالها عنك.. سألنى: لماذا لم يعد يرانى عندك.. وقلت له يكفى أنك عندها!

قال: هل تظن أن بيننا علاقة غير علاقة العمل؟

قلت: أنا لم أتعود على الظن فى مثل هذه الأمور.. وأفضل دائماً أن أعتقد على أن أظن!

وتوهمت أنه فهم ما أعنيه، وإذا هو لم يفهم ما قصدت إليه.. ربما لأنه أذكى مما أتصور، ربما لأنى أغبى مما يتصور!!

وقد ضقت بجلوسنا معا. فتركته واتجهت إلى مائدة جلس حولها بعض أصدقائى.. ولكنى لم أمكث معهم إلا بضع دقائق.. كنت أريد أن أجد شخصا أحدثه عنك، أو يحدثنى عنك.

فإن أسرارى أصبحت كالكحة إذا لم أتخلص منها سدت القصبة الهوائية وعرضتنى لإغماء قد لا أفيق منه أبدا.

وبعدما درت فى الكافتيريا لحظات قصيرة، وجدتنى أسحب مقعدا وأجلس مرة أخرى مع المحامى الذى يحضنى على احتقاره، والغيرة منه.

وقد استطعت أن أعبر عن احتقارى له، ولكنى لم أستطع أن أبوح بغيرتى.

وفى هذه المرة لم أتركه وانصرف، ولكنه هو الذى تركنى وانصرف!

لماذا تسيئين بى الظن، وتتهمينى بالحملة على أصدقائك، بدافع الغيرة والمرارة؟

(١١)

حبيبتى...

لقد التقيت اليوم بصديقك المحامى، فى نفس المكان الذى تعود كلانا أن يتردد عليه. كان وحده وكنت وحدى، وقد امتلأت «الكافتيريا» بأكثر من مائدة خالية، ولكن أحدا لم يدع الآخر إلى الجلوس حول مائدة من هذه الموائد، وتبادلنا الحديث، ونحن واقفان بجوار الباب الزجاجى نصطدم بالمارة، والمارة يصطدمون بنا.. إننى لا أحقد على صديقك هذا. كل ما هنالك أنى أحب أن أكرهه.. وأجد راحة فى الاشمئزاز منه!

إن حديثه لا ينتهى إلى حد، أو يتقيد بموضوع، وطريقته فى الكلام ترغمنى على أن أرهف أذنى، وأقربها منه، حتى أستطيع أن أتبين ما

يقول. إن صوته أشبه بالأحرف الصغيرة الذى تصر الصحف على أن تجمع به بعض المقالات كى لا يقرأها أحد حتى الذين كتبوها!

وقد فهمت منه أنه حكى لك ما دار بينه وبينى منذ أيام، وأنه شكا من لهجتى الغاضبة العنيفة... وقال إنك علقت على ذلك بابتسامة تخللتها هذه الكلمة: مسكين... لقد دمرته الغيرة!

وصدقينى إذا قلت لك، أننى لست مسكينا. ربما كنت كذلك لو أننى استسلمت للوهم الذى علقنى بك. ولكننى قاومته، ورفضت، وجعلت من كبريائى حصنا يحمينى منك، ومن قلبى!

ولا شىء يقوى على أن يدمرنى لأننى أحيا، وما دمت حيا، فإن العواصف التى تهب من حولى لا تزيدنى إلا قوة على مواجهة الأعاصير.

أننى لست كثيبا من الرمل تبدده حفنة من الهواء، ولكنى جبل لا أبالى العاصفة، بل أحتفى بها، وأحتضنها، وبدلا من أن تزمجر فى الفضاء أجعلها تغنى من خلال صخورى!

وليس صحيحا أنى أغار من أى انسان تعرفينه. فالغيرة لا تكون إلا ممن تحبونهم. وقد عرفت بالتجربة أنك لم تحبى إلا ذاتا واحدة لا أستطيع أن أغار منها، لأنها مختبئة فى ثيابك!

إنك تحبين نفسك، وتغارين ممن يشاركونك حبها، بل إنك تناصبينهم العداء. ومن أجل ذلك عاملتنى كما لو كنت عدوك الطبيعى. أحببتك فكرهتنى، قدمت إليك قلبى فطعنته بخنجر مسموم!

وأنت لا تعرفين ما هو الحب. وليس هذا طعنا فيك. وإنما هو إحدى مقومات شخصيتك.

(١٢)

حبيبتى...

التى عذبتنى سنين وسنين... أنك تفكرين بعقلك. ولا أدرى هل أنت ذكية أو غبية. كل ما أدريه أن عقلك كبير وشرير... فهو يريد أن يجعل من القيم والمعانى طريقا تدوسينه بقدميك الرشيقتين وتصلين به إلى غايتك... وما هى هذه الغاية؟ أن يحبك الناس جميعا... وأن تكرهيهم جميعا!

صدقينى إننى لا أغار إلا من إنسان تخصينه بحبك.. وأنت لا تخصين بالحب إلا ذاتك... فهل أغار منك؟

صدقينى... لا!

ربما أدهشك أن تعرفى هذه الحقيقة التى أخفيتها عنك خجلا منك، أو خجلا من نفسى. أنك تذكرين كم كنت أضيق بصديقك المحامى وأتجنب لقاءه عندك، وكانت سيرته تثير اشمئزازى، وخاصة إذا ما رأيتك تغدقين عليه صفات الذكاء والنبوغ والشهامة! فهل تعلمين أننى فى هذه الفترة بالذات وقعت تحت تأثيره، وكنت برغم كراهيتى له أحرص على أن ألقاه، وأتحدث إليه، وأستمع إلى آرائه بشغف واحتقار... نعم، فقد دخل حياتى من نفس الباب الذى دخل منه مرض السكر حياتى... وأصبح كلاهما مرضا يحتل كيانى، ولا حيلة لى فى التخلص منه... إن مرض السكر يقتضينى أن أمتنع عن تناول المواد السكرية والنشوية، وأن أحترم سطوته ونفوذه حتى لا أتعرض لأزمات تكلفنى التضحية بحياتى... وصديقك المحامى، اقتضانى أن أذعن لنصائحه، وأمتنع عن المكابرة والعناد وإلا فقدتك إلى الأبد. ولقد كنت بالنسبة لى كل ما فى الحياة من نبض، ونشوة، وألم، وانفعال، وقد استطاع أن يسيطر على ذاتى بما له من

مكانة فى نفسك. كنت أراه يتصرف فى مصيرك بقوة وبساطة. يكاد يحدد لك نبضات قلبك والتفاتات ذهنك. يكاد يختار لك أصدقاءك وأعداءك، وما تأكلين، وتلبسين، وتقرئين..

إنه ليس وصيا عليك بحكم القانون، وقد بلغت سن الرشد. ومع ذلك فأنت لا تحبين ولا تكرهين إلا بأمر منه، وبناء على مشورته.

وقد تخيلت أننى إذا وصلت إلى قلبه فسوف أصل إلى قلبك. ولكنى أخطأت التقدير، فإنه مثلك لا قلب له.. أو لعل له قلبا ذكيا أدرك حقيقة مشاعرى، وهو أننى أكرهه باصرار.

وقد صارحنى فى زهو، أنه منعك من الزواج أكثر من مرة، لأن من تقدموا إليك كانوا يطمعون فى عزبتك التى ورثتها عن أبيك.

وسألته: ألم يكن راغبا فى الزواج منك شخص واحد أحب فيك الجمال والجاذبية؟ فضحك بأعلى صوته وقال: إن الرجال يحبون الجمال.. ولكنهم لا يتزوجون إلا من المال!!

وكان وهو يلقى بهذه الكلمات يحدق فى قسمات وجهى ليرى هل انفعلت كما ينبغى؟

والواقع أن ما قاله لى زادنى نفورا منه.

ولكنى أخفيت نفورى بابتسامة كدت لشدة افتعالها أتصور أنى وضعتها بأصابعى فوق فمى..

وأخذت أسأله- وأنا هكذا فى حالة ابتسامة مفتعلة- هل تزوجت يا أستاذ؟

فقال بزهو: تزوجت مرتين..

وعدت أسأله: وهل كانت الزوجتان من ذوات المال؟

فقال وهو يضرب إحدى كفيه بالأخرى: أبدا.. ولهذا طلقتهما.. ولن أعود إلى الزواج بأى ثمن..

فعقبت قائلا: ربما تتزوج إذا عثرت على ابنة الحلال الغنية؟

فقال وهو يتكلف التواضع:

- وما الذى يجعل فتاة غنية تتزوج من شخص تجاوز الأربعين؟

قلت: إنك مازلت فى عنفوان الشباب.. وإذا كانت سن الأربعين تمنع من الزواج فماذا أقول أنا وقد تجاوزت الخمسين؟

فقال ببلاهة: صحيح.. لماذا لم تتزوج؟

قلت: لأنى أبحث عن بنت الحلال الفقيرة الذكية الجميلة!

فقال وهو يكاد يغيب عن الوعى من القهقهة: لا.. أنا عارف بنت الحلال التى تقصدها أنت!